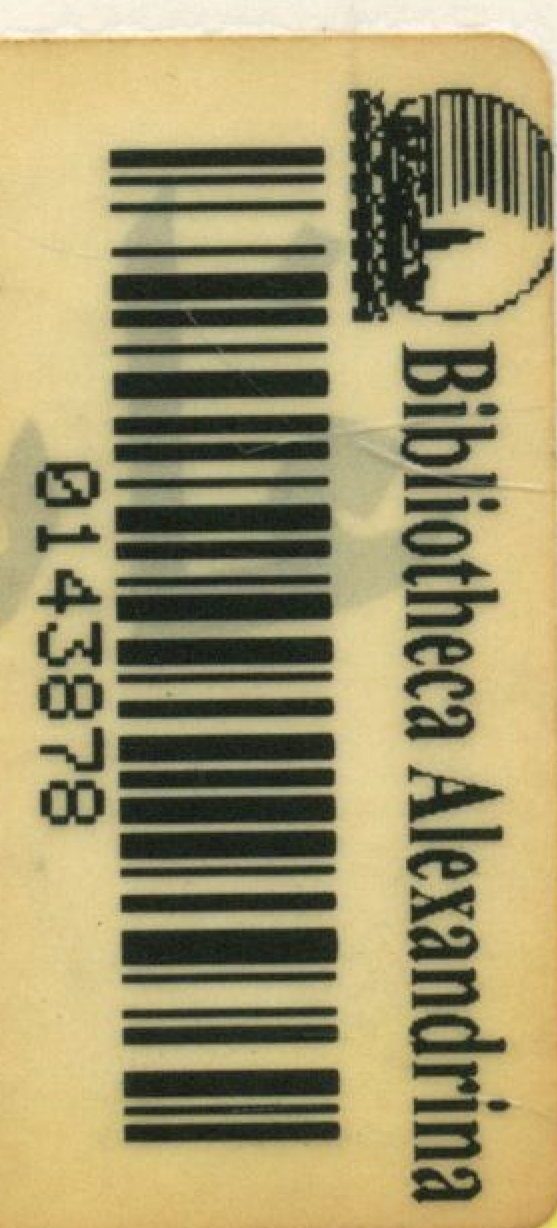


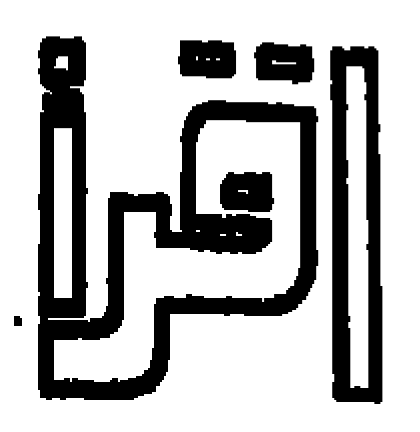
على الجارم

ة رشيد





دار المعارف



[٨٧]

غادة رشيد

علي الجارم

غادة رشيد



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا في شيء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هي ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التي نحياها.

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

١

فى اليوم الثانى من شهر يولية سنة ١٧٩٨ كانت الشمس تدرج من خدرها ، فترسل أشعتها فوق النيل براقة وهاجة كالذهب النضار ، وقد تكسرت أمواجه وهبت عليه نسمة شمالية وئيدة الخطا ، بلل البحر الأبيض أذيالها بمائه ، ونفحها ببخاره المملوء بعناصر القوة والحياة .

وكانت مدينة رشيد فى هذا الصباح جاثمة فوق الشاطئ الغربى ، بعظمة منازلها وارتفاع مآذنها ، تنعم بلذة الهدوء الذى احتواها فى أثناء الليل ، إلا ما كان من العملة الذين اتجهوا أفواجا إلى مضارب الأرز وإلا ما كان من زمر الفلاحين الذين قدموا من الشمال والجنوب لبيع حاصلاتهم من الخضر والفاكهة ، واللبن والبيض والدجاج ، وقد أخذ فتى غض الشباب يرسل صوته عذباً مشجياً بأغنية يذكر فيها ما يبذله من الجهد لجمع مهر حبيبة فؤاده ، ثم يتم الأغنية بأن كنوز الأرض وثروة « البك الكبير » بمصر لاتكفى مهراً لهذا الجمال الرائع والحسن الفتان . ويسمعه بعض النساء والعذارى اللائى بكرن إلى النيل لغسل ثيابهن

وملء جرارهن ، وقد انتثرن على شاطئه فى ثيابهن الزاهية الألوان كأنهن عقد اختلفت حباته حول جيد الحسناء . وقد زاد جمال الصبح فى جمالهن ، وأمن نظرات العيون فكشفن عن سوق خدال ، ومعاصم رخصة صافية البياض ، لولا ما يحبسها من حجول وأساور لسالت فى الماء ، كما يسيل الماء .

ضحكت إحداهن فى دلال وعجب ، وقالت لإحدى صويحباتها :

ــ أتسمعين غناء هذا الفلاح الأبله ؟ فأجابت :

ــ لعله يا فاطمة يتغزل فى جاموسة لأحد جيرانه يريد شراءها . فأسرعت فتاة لاتعرف مكر النساء ولا أساليبهن ، تقول فى سذاجة :

ــ ولكنه يصفها بأنها سوداء العينين ، صغيرة الأذنين ! فأرسلت فاطمة ضحكة مغرية الرنين وقالت : إنها الجاموسة بعينها كما قالت سعاد ؛ وهى التى من أجلها يكدر علينا هذا الفلاح الجافى جمال هذا الصباح بصوته المنكر . من أين يأتى لهؤلاء الفلاحات الجمال ؟ ولو قدر لهن شىء منه لطمسنه ببلاهتهن وقذارتهن ، وجهلهن بطبائع الرجال . إن الجمال مهارة قبل أن يكون خلقة وفطرة . والمرأة التى لا تستطيع التعبير بعينيها وابتساماتها ، وأسارير وجهها عما تحب وتكره ، والتى لم تدرس طبائع الرجل ، ولم تعرف

مواطن ضعفه وغروره ، لن يكون لها حظ عند زوجها ، ولو بلغت فى الجمال ما بلغت زبيدة بنت البواب .

ارتفعت الشمس وعاد النساء بجرارهن ، واستيقظت المدينة الآهلة بسكانها ، الزاخرة بنزلائها من جميع أقطار الشرق ، فقد بلغت رشيد فى هذا الحين شأوًا بعيداً من الثروة واتساع التجارة واستبحار العمران .

وكانت شوارعها ضيقة ملتوية ، تقوم على حافتيها منازل بنيت بطوب صغير الحجم أجيد إحراقه ، حتى أصبح كالحجر الصلد . وأعظم ما كانت رشيد تزهى به شارعان عظيمان ، أحدهما شارع البحر ، والثانى شارع مواز له يبتدئ من مسجد المحلى ، وينتهى جنوباً بالمسجد الجامع المسمى بمسجد زغلول ، وهو من المساجد النادرة المثال بمصر ، تزيد رقعته على رقعة الجامع الأزهر ، وبه مساكن لطلاب العلم الغرباء . وكان يلقى الدروس به طائفة من كبار علماء المدينة ، أشهرهم الشيخ أحمد الخضرى ، والشيخ إبراهيم الجارم ، والشيخ محمد صديق .

وكان يسكن عظماء المدينة وكبار تجارها بشارع دهليز الملك ، وهو يبتدئ من الغرب بمسجد العرابى ، وينتهى فى الشرق إلى النيل .

وكان يسكن بهذا الشارع عثمان خجا حاكم رشيد من

قبل مراد بك ، وكان رجلا فاتكاً بطاشاً ، ظالما جماعاً للأموال أين وجدها ومن أى طريق وصل إليها . وكان به منزل محمد بدوى چوربجى سردار مستحفظان ، والسيد محمد البواب ، والسيد إبراهيم الجمال ، ــ وهما من كبار تجار الأرز بالثغر ــ والحاج عبد الله البربير شاعر المدينة وزجالها ، إلى غير هؤلاء من الأعيان والعلماء والكبراء .

وميناء المدينة أشد أحيائها ازدحاما وأكثرها جلبة وصخبًا ، تراصت به السفن آتية من أقطار الشرق والغرب ، وسار ملاحوها فى شارع البحر يلغطون ، وقد اختلفت أزياؤهم وألسنتهم وألوانهم . واختص شارع البحر بمضارب الأرز فأطل عليه منها أكثر من ثلاثين دائرة ، يبيض فيها الأرز بطواحين تدور بالخيل والبقر . وكان بهذا الشارع متجران : أحدهما لفرنسى يدعى مسيو فارسى وهو يتجر فى الحبوب والعقاقير الطبية ، والثانى لإنجليزى يتجر فى المنسوجات الحريرية والصوفية ، هو مستر أوليفر نيكلسون . وقد كان عند بدء تاريخنا هذا فى سن الأربعين ، رحب الجسم قوى العضل ، يدل تألق عينيه الزرقاوين على قوة العزم ، ويوحى انبساط أسارير وجهه بالوداعة واللطف وسلامة دواعى الصدر . وكان كامل الثقافة وافر العلم بأحوال الدول والأمم .

في ضحوة هذا اليوم جلست زبيدة بنت السيد محمد البواب في غرفة نومها ، ثم قامت واتجهت إلى المرآة ذاهلة حالمة : فرأت وجهاً كأنه إشراقة الصبح أو صفحة البدر ، أو تبلج الحق بين ظلمات الشكوك . به عينان حوراوان امتزجت بهما صولة السحر بنشوة الخمر ، فكانتا شباك الفتنة لصيد القلوب . وأنف أحسن الله تقويمه وأبدع تكوينه فزاد وجهها جمالا . وثغر دري ياقوتي ، تهيم به الشفاه ، وتحوم حوله القلوب ظمأى ، كما تحوم طيور الصحراء حول معين الماء العذب النمير . ثم رأت صدراً صافي البياض ممتلئاً بالأنوثة الناضجة ، يعبث بالعقول ، كأنه سبيكة من لجين ، استعارت من الزئبق لينه فظهرت ناصعة رجراجة .

كانت زبيدة في الثامنة عشرة من عمرها ، وقد تفتح فيها الشباب كما تتفتح زهرات الربيع ، وجالت بنفسها خواطر وثارت بها نزغات لم تعرفها في عهد الطفولة الغريرة ، وأحست بما تحسه الفتاة في هذه السن ، من ميول متدفقة يكبتها الحياء وتكظمها بقية من أدب ودين .

كانت زبيدة فارعة القد ممتلئة الجسم ، جرى حديث جمالها الفاتن من فم إلى فم ، وتنقل من دار إلى دار ، حتى أصبحت مضرب المثل بين فتيات المدينة ، ومقياس الجمال كلما عرض ذكر الجمال . وتهافت أبناء التجار

والأعيان والحكام على خطبتها والتقرب من قدس حسنها ، ولكنها كانت ترد كل توسل بالإدلال ، وكل إغراء بالرفض والإباء . ولم تكن أمها لتستطيع أن تعمل شيئاً أمام هذه الحسناء الجامحة ، ولم يكن أبوها — وهى وحيدته — ليرد لها كلمة أو يقف بينها وبين ما تكره أو تحب . كانت الفتاة المدللة العابثة المتحكمة ، وقد ملأتها ثقتها بجمالها كبراً وغروراً ، وزادتها ثروة أبيها الضخمة ميلا إلى الإسراف ، والتأنق فى الرفه .

جلست زبيدة أمام مرآتها ورأت ما رأت ، فابتسمت ابتسامة لؤلؤية ، ثم عبست وتجهمت أساريرها ، ثم رفعت حاجبيها وشخصت بعينيها كالمفكرة المأخوذة ، ثم قالت تحدث نفسها :

ولِمَ تكذب « رابحة » العرافة ؟ أليس فى حسنى ما يذل له كل عزيز ، ويخضع لسطوته كل ذى نفوذ وسلطان ؟ ألم يسر ذكر جمالى مع كل سائر ؟ ويطر مع كل ريح ؟ نعم إن رشيد مدينة نائية عن القاهرة مقر عظماء الحكام وكبار الأمراء ، ولكن الملاحين الذين يسافرون إليها فى كل يوم لا يزالون يحفظون ويتغنون بتلك الأغنية السائرة ، التى نظمها سرًّا الحاج عبد الله البربير والتى فيها :

الحسن كله فى رشيد فى بيت   وإن كنت تنكر إسأل البواب

لا . لا . لن تكذب رابحة ، وهى لم تتكهن بشىء مستحيل أو بعيد المنال . ثم ضحكت ضحكة اليأس والاستخفاف وقالت :

ألست أتشبث بخيوط من الوهم ، وتعبث بى عاصفة هوجاء من الخيال الكاذب ؟ من أنا حتى أكون حاكمة مصر ؟ بنت السيد محمد البواب أحد تجار الأرز برشيد ؛ ها ها . وهذا كل ما أقدمه من الذرائع لأكون أول سيدة بمصر ؟ ! لا يا زبيدة هذا لا يكفى . ثم إننى جميلة فائقة الحس فاتكة اللحظات ، رائعة القسمات ، لم تطلع الشمس على أنضر منى وجهاً ولا أملد عوداً ، ولا أشد إغراء وفتنة ! وهذا أيضاً لا يكفى يا زبيدة ، فإن منازل الرفعة لا تنال بالجمال ، وحكام مصر وبكواتها يتصاهرون فيما بينهم لحصر الملك فيهم ، وجمع السلطة فى أسرهم . لا يغريهم سحر العيون ولا اعتدال القدود .

حقـًّا إننى أتعلق بأمل خداع وغرور مضلل ! ! وسأسقط من القمة التى أنشبت فيها أظافرى مهشمة العظام ، مفككة الأوصال . حيئذ سأفيق بعد أن قضيت زهرة شبابى فى جنون وأحلام ، وحينئذ سأنظر حولى وقد بلغت الثلاثين أو نحوها ، فأجد الخطاب وقد طاروا وتركوا عش فاتنتهم حطاماً مبعثراً . ثم أنظر فى هذه المرآة التى أمامى فلا أرى

فيها تلك الفتاة الناعمة التى أراها اليوم ، ولكنى أرى فيها امرأة سواها ، دبت فى وجهها الغضون ، وخمد من عينيها ذلك البريق الساحر اللماح .

لا . لا . لعن الله تلك العرافة ، ولعن الله اليوم الذى قابلتها فيه !

ثم أطالت النظر فى المرآة ، فرأت فحصة رائعة الحسن فى خدها الأيمن ، فابتسمت ، فزاد الابتسام تلك الفحصة ظهوراً وحسنا ، فعاودها الأمل ، ورفعت رأسها فى شمم وعزة ، وهمست :

ولكن العرافة لا تكذب . إننى لم أعرض عليها كفى ، كنت جالسة بجانب أمى فجذبتها ونظرت فيها لحظة ، ثم صاحت دهشة حائرة ، وكانت الحيرة تبدو فى عينيها حقيقة لا تكلف فيها ، صاحت : إننى لم أر فى حياتى هذا الخط فى كف غير كفك وكف إبراهيم بك الكبير . إنه خط الملك ! إنه خط الملك ! ! خط العظمة ! خط الحكم ! ولكن ما هذا يا ربى ؟ ! سبحانك لا راد لمشيئتك ، ولا معقب لحكمك ! تباركت لك الأمر ، وبيدك الملك ، وأنت على كل شىء قدير ! ! انظرى يا زبيدة ؛ ما أنا بمخطئة . انظرى يا مليكتى ! أترين هذا الخط الذى يمر بأسفل الإبهام قويًّا بارزاً ، ثم لا يقف عند ذلك كأغلب الأكف ،

بل يمتد إلى نهاية الأصابع الأخرى حتى يصل إلى الخنصر . هذا هو خط الملك ! ! انظرى إلى كفى ، فهل ترينه ؟ ثم إلى كف أمك فهل تجدين له أثراً ؟ ! ثم إذا شئت فانظرى إلى أكف أهل رشيد جميعاً ، وأنا زعيمة بأنك لن تعثرى على مثله .

دهشت ودهشت أمى ، وقهقهت قهقهة المذهول وقالت : ما هذا يا رابحة ؟ ما هذا الكذب الصراح ؟ كنا نرضى منك بدون هذا . وأين نحن من الحكم ومن مراتب الحكم ؟ إن الحكم فى مصر قسمة بين البشوات والبكوات ، ولن يناله مصرى أنبتته أرض مصر : إننا نعيش فى بلادنا غرباء نتلقف فتات ما يتركون . إن ابنة عثمان خجا تأنف أن تزور بيت رشيدى كيفما علا مقامه ، وعظم جاهه . إنها لا تسميننا إلا بالفلاحين ، كأن الله خلقنا من طين وخلق الترك من مسك وكافور . بنتى تحكم مصر ؟ ! دعيها أولاً تحكم رشيد ، أو شارع دهليز الملك ، قبل أن تطيرى بها فى جو الأحلام والأكاذيب . لعلك تظنين أنه كلما عظمت الأمنية عظم الأجر . ولكن الأمانى المعقولة شىء ، وهذا الجنون الجديد شىء آخر .

قالت أمى هذا ، فتطاير الشرر من عينى رابحة ، ووضعت يدها فى جيبها فى حنق وغضب . فأخرجت أنصاف الفضة

التى كانت أمى أعطتهـــا إياها ، وقذفت بها فى وجه أمى وهى تصيح : جنون جديد ! هذه أنصافك يا سيدتى فإنى فى غنى عن مالك بما وهب الله لى من علم ومعرفة . وإذا كنت تظنين أن تكهنى دجل وخرافة ، فلم دعوتنى ؟ لعل الذى جرأك على أنى أتقبل أجراً لقاء الإفضاء ببعض ما يتكشف لى من ملامح الغيب . ووالله لولا مس الحاجة ما تدليت إلى هذا الحضيض ، ولا سمعت اليوم من سيدتى نفيسة التى تظننى امرأة أفاقة أفاكة ، هذا السب الشنيع ، حقًّا إن كل شىء يمتهن إذا بيع بالمال : فالجمال يمتهن إذا بيع بالمال ، والجاه يمتهن إذا بيع بالمال ، والعلم يمتهن إذا بيع بالمال .

ثم زايلها الغضب دفعة واحدة والتفتت إلىّ وحنت رأسها فى إجلال وخشية وقالت : والآن تحيتى وخضوعى لمولاتى زبيدة ملكة مصر ، ثم انفلتت كما ينفلت الطائر من الشبكة فلم نر لها أثرًا .

هذا ما جرى من رابحة العرافة ، أذكره كلمة كلمة كأنما أقرأه فى لوح مكتوب . فهل كان كل ذلك كذباً وزوراً ؟ وهل أنا مخاطرة بحياتى وجمالى وشبابى ، فى سبيل كذب وزور ؟

إن الزهرة إذا تفتحت اليوم ذبلت غداً ، والبدر إذا

ثمّ كماله درج إلى النقص والمحاق .. وهل بعد بلوغ الفتاة الثامنة عشرة غاية للنضج وتفتح الأنوثة وتفجر الميول ؟ فإذا أهملها الخطاب فى هذه السن ذوى عودها وخبت نارها ، وذهبت بشاشتها ، كالثمرة إذا لم تجن والزرع إذا لم يحصد. هكذا قضت الطبيعة القاسية المستبدة بكل حى ، فقد جعلت لكل شىء أواناً ، فإذا ذهب أوانه تبدل خلقاً آخر ، فزهدته النفوس وتقحمته الأعين .

إن ابن خالتى محموداً العسال فتى يزدهى به الشباب ، وتعتز به الفتوة . إنه زينة الأنداد وفخر الأمثال : جمال وجه إلى كرم خلق ، إلى جرأة وإقدام ، إلى كياسة وحزم ، ثم إلى ثروة وجاه عريضين . وما رأيته مرة إلا اختلج قلبى له ، وهفت روحى إليه ، وأحسست فى شفتى بدبيب يكاد يدفعهما إلى تقبيله ، وجرت فى جسمى نشوة عجيبة لا أعرف لها كنهاً ولا أستطيع لها وصفاً . أهذا هو الحب الذى يتغنى بأناشيده الرجال والنساء ؟ إن كان إياه فإنه حب عنيف تحكم فى نفسى ، وملأ على يقظتى وأحلامى . أما محمود فلم يدع وسيلة يدلى بها إلىّ إلا اتخذها ، ولم يترك كلمة من كلمات الغرام إلا سكبها فى أذنى . يغرى مرة ويتذلل أخرى ، ثم يصف ما يلاقيه من الهجر وصفاً يستنزل العصم ، ويهز الجبال الشم . وأنا أنصت إليه فى

وجوم وذهول ورعب ، وقلب مضطرب خفاق ، فإذا زادت بى ثورة الوجد كدت أثب عليه فألتهمه ضماً وتقبيلا لولا أطياف ذلك الخيال الخداع ، والأمل الختال ، التى كانت تسرع إلى نفسى فتجتذبنى من السماء إلى الأرض ، وتطفئ نار نزواتى ، وتهدئ من خفقات قلبى . ذلك الخيال الذى يصور لى الملك الموهوم ، والذى يوسوس إلى أن من قسم لها أن تكون حاكمة مصر لا ينبغى لها أن تصغى إلى كلمات الغرام من أى شخص ، ولو كان فى جمال محمود العسال ورجولته . أسمع هذا الوسواس الخناس فيعود إلى هدوئى ، وأرده عنى بكلمات تقتل الأمل وتجتث الرجاء ، ويعلم الله أنى أقولها وكل حرف منها سكين فى فؤادى وغصة فى حلقى ، إنه زهد فى جميع الفتيات لأجلى ولو أنه رفع إصبعاً لأجملهن لطارت إليه شغفاً ، واهتزت كالعصفور للقائه شوقاً ، ولكنه أبى أن يتزوج إلا بى . ذكرت له أمه بنت الشيخ الجارم « رقية » — وهى من هى فى جمالها وخفة روحها ومنصب أبيها — فأبى . ثم ذكرت له بنت السيد أحمد المحروق زوج خالتى — وهى بنت الشرف والسيادة والجاه — فأبى . فهل حكم على وعليه أن نبقى هكذا محرومين من ثمار هذا الحب ، ومن تلك الجنة الدانية القطوف ، وبيننا وبينها كلمة تقال ؟ !

وما كادت تنتهى من تأملاتها حتى رأت خادمها الخاص « سروراً » يقبل نحو غرفتها ويقول : إن سيدى محموداً حضر منذ ساعة ، وهو جالس مع سيدتى الكبيرة ، وقد أرسلتنى لأدعوك إليهما

فخرجت تميس فى دلال وعجب ، حتى نزلت إلى أمها فى الطبقة الثانية من المنزل ، فلما رأتها أمها قالت :

ـــ أهلا بعروسى الحسناء . تعالىْ بجانبى يا فتاتى وأنصفينى من ابن خالتك هذا ، فقد حطم رأسى بكثرة حديثه هذا الصباح ! ولولا حبى له وإعجابى بخلقه وأدبه ورجولته ، لكان لى معه شأن آخر .

فحيت زبيدة ابن خالتها بعينين مطبقتين تصنعت فيهما الحياء والخفر ، ثم جلست إلى جانب أمها ورفعت رأسها قليلا نحو محمود ، وقالت :

ـــ كيف حال خالتى زينب اليوم ؟

ـــ الحمد لله ، ولكنها لا تزال عاجزة عن المشى ، ولاتزال تقاسى آلاماً مبرحة فى ساقيها ، وبخاصة فى الليل .

ـــ كانت هنا بالأمس « بدور » الدلالة وقالت : إنها كانت أصيبت بهذا المرض ، ولم يشفها منه إلا دهن ساقيها بزيت ساخن خلط به دقاق الفلفل الأسود ، والقرفة والمر .

ـــ عملنا يا زبيدة كل شىء ، ولم نترك فى تذكرة داود

علاجاً إلا جربناه . واضطررت آخر الأمر إلى استشارة الطبيب الفرنسي « شوفور » فقال لى : إنه مرض فى المفاصل ، وإن له مرهمًا فى فرنسا ، ولكن هذه الحرب بين الدول سدت سبل البحار ، فلم يصل إلى مصر إلا قليل جداً من البضائع التى كانت تغرق الأسواق .

كانت نفيسة أم زبيدة جالسة تعبث بسبحتها ، وهى بادية العبوس تكاد تحترق غيظاً من الحديث فى السفن والتجارة ، لأنها كانت تود لو أن محموداً قذف بنفسه على قدمى زبيدة يبللها بدموعه ، ويشتكى لها لوعة الحب والغرام وليس أشهى لدى المرأة فى سن اليأس من أن تشهد منظراً للحب ، أو تسمع عنه حديثاً . لقد حرمتها الطبيعة الحب الذى لم تنس حلاوته ، فلا أقل من أن تراه فى غيرها .

ولما رأت الحديث تافهاً ، خطر لها بحق أن وجودها قد يكون سبباً فى كبح جماح عاطفة محمود فقامت مسرعة وهى تقول : يا حسرتى ! لقد نسيت أن أنظر فيما تعده الطاهية لغداء اليوم . ثم ذهبت نحو المطبخ ولقبقابها العالى جلبة وقعقعة ..

وهنا نظر محمود إلى زبيدة فى ذل واستجداء ، وقد أحست فى لمحة خاطر ما وراء هذه النظرة ، وهدتها فطرتها النسوية الماكرة إلى السكوت حتى تتفتح لها السبيل التى

يجب أن تسلكها . فأطرقت إطراق المذنب الخاضع الذى وطد النفس على تلقّى ما يقذف به من تهم . وهنا قال محمود :

لقد وعدتنى فى آخر لقاء لنا يا زبيدة أنك ستفكرين فى الأمر ، وستصارحيننى بما انتهى إليه رأيك ، وسألتك الرحمة بى فيما تفكرين ، والإشفاق علىّ فيما تبتين . ووالله ما لقيتك بعدها إلا خفت أن أسألك عما هداك إليه التفكير من الحكم لى أو علىّ ، لأنى رأيت من الخير لى أن أعيش فى نعمة من الشك ، وأن أستمر فى مداعبة أمل واهن أضعف من أنفاس المحتضر . مضى شهران يا زبيدة وأنا فى هذا الشك ، فهل لديك اليوم كلمة أقوى بها أملى ، وأتوسم فيها وجه سعادتى ؟ لا تقولى : « لا » يا زبيدة ، فإنه لم يبق لى إلا وتر واحد ضعيف من أوتار الأمل ، أعزف عليه أنشودة غرامى ، فإذا قطعته يا زبيدة سكتت أنشودتى وسكتت معها نبضات قلبى . قولى : « نعم » يا حبيبتى ، وإذا عز عليك أن تقوليها فلا تقولى « لا » .

كانت لواعج الحب تضطرم فى نفس زبيدة ، كانت تحس كأن سكاكين مثلمة تحز فى فؤادها ، لأنها كانت تهوى ابن خالتها وتراه المثل الأعلى للزوج والحبيب ، وتتمنى لو ألقت بنفسها بين ذراعيه ، ومزجت دموعها بدموعه . ولكن المسكينة كان لنفسها ناحيتان : ناحية يتحكم فيها

الوجدان وتطغى النزوات ، وناحية ألقت بزمامها إلى العقل واستسلمت إلى سلطان الإرادة . وطالما تحكمت الثانية فى الأولى ، وأسكتت صيحاتها . فالتفتت إليه وقالت :

— أنت لا تشك يا محمود أنى أحبك كما أحب أخى عليًّا ، وأنى كلما فكرت فى أمرك ارتفع فى نظرى هذا الحب الأخوى الطاهر الشفاف على حب الزوجة لزوجها ، فأضن به أن يذهب من يدى لأستبدل به حبًّا ماديًّا أرضيًّا ، قلقاً مضطرباً ، ربما دام وربما لا يدوم .

— حبًّا قلقاً مضطرباً ؟ إن حبى يا حبيبتى لو تجسم لكان ركانة فى الجبال ، وصلابة وبأساً فى الحديد . إنه قطعة من الروح وفلذة من القلب ، فإذا زال زالت الروح ، وذهب القلب معه . إن الحب الأخوى نفحة وراثية ، والحب الغرامى نفحة روحانية ، وشتان ما بين النفحتين ! ! لا تغالطينى يا حبيبتى ، وإذا رضيت أن أكون لك أخاً فأطلقى لهذا الحب قليلا من فضلة العنان ، ليكون حبًّا قدسيًّا تتعانق فيه الروحان ، وتتلاقى الشفتان .

— هل سألت أبى ؟

— لقد أمللته حتى إنه كان يفر منى . ولما ضاق بى ذرعاً آخر الأمر ، التفت إلى حزيناً وقال : « إنك تزيد فى آلامى يا بنى بكثرة الإلحاح ، لقد ذكرتك أمامها

مرات ، ويعلم الله أنى لم أترك وصفاً مما يرغب النساء فى الرجال إلا خلعته عليك ، ولكنى لم أر منها اتجاهاً إليك ولا رغبة فيك . وقد عاهدت نفسى ألا أجرى إلا على ما أرادت ، وألا أدفعها إلى أمر لا ترغب فيه ، فإذا رضيت بك زوجاً فإننى سأكون أسعد خلق الله بهذا الزواج . »

أما أمك : فقد قضيت معها ساعة اليوم فلم أجد منها إلا موافقة تامة ورضاً كاملا ، غير أنها كانت كأبيك تخشى أن تلزمك إرادة أو تحملك على عزيمة ، فالأمر بين يديك يا زبيدة . إن فى فمك كلمة هى الحياة أو الموت ، فأشفقى على ابن خالتك المسكين ! !

نظرت إليه زبيدة فى شىء من القلق مكتوم وقالت : لم يبق إلا رضاى ؟ ! وهذا شىء هين ، ولن يخلو زواج من عقبات ، وهذه عقبة صغيرة أسأل الله أن يقدرنى على تذليلها ، فدعنى الآن يا محمود ، فإن لكل شىء أواناً ، والذى سطر فى لوح القدر سيكون ، ولا بد أن يكون .

وهنا ظهرت عند باب السلم الشيخة أمينة ، وهى امرأة كفيف تحفظ القرآن وتقرأ فى بيوت أغنياء المدينة ، وكانت تقودها فتاة صغيرة قذرة الجلباب حافية القدمين ، أصاب الرمد عينيها بدموع لا تنقطع ، فأوشكت أن تشبه من تقودها . دخلت الشيخة أمينة وهى تقول :

صبحكم الله بالخير جميعاً وكفاكم شرور هذا الزمان . إن المدينة اليوم فى ثورة جامحة ، فإن عثمان خجا لم يكتف بما يفرضه من الضرائب والمكوس والمصادرات فى كل يوم ، حتى ابتكر ضريبة جديدة لا تترك للفقير ما يقتات به ، ولا تبقى للغنى ما تبقى له من قليل .

وهنا ظهر الحزن والهم على وجه محمود العسال ، ونهض واقفاً وهو يقول : لا يمكن أن نعيش يوماً آخر مع هؤلاء المماليك . ثم حيا زبيدة ومال إلى أذنها وهو يهمس : طال الصبر يا زبيدة فإلى متى ؟ ثم أسرع نحو الباب .

وعندئذ قامت زبيدة متثاقلة حزينة ، فهرعت إلى غرفة نومها لتكتم آلامها ، وما وصلت إليها حتى رمت بنفسها على السرير وكتمت أنفاسها الحرى فى وسادة من الحرير ، وأخذت تبكى بكاء مكتوماً اهتزت له أضلاعها فى خفقات مضطربة ، وهى تقول : أحبه ! ! . . أحبه ! ! . .

٢

وصل محمود إلى الشارع فرأى الناس يتسابقون إلى شارع زغلول ، وفى كل وجه صورة مخيفة للغضب والحزن وحب الانتقام . وكانت العين لا ترى فيهم إلا أشباحاً للفقر والجوع

والذل ، مشى محمود فى إثرهم حتى إذا وصــلوا إلى الشارع رآهم يتجهون نحو مسجد زغلول ، فهز رأسه حزينًا وقال : مسكين هذا المسجد ؛ أصبح من يلتجئ إليه من المظلومين أكثر ممن يقصده للصلاة والعبادة ، والناس لا يجدون غياثاً فى هذه الأيام إلا العلماء والأعيان . وويل لهؤلاء العلماء والأعيان ! إنهم أصبحوا أضعف من ذات خمار أمام ظلم عثمان خجا وظلم أعوانه وعصابته . اذهبوا أيها المساكين اذهبوا ، فإن عثمان خجا لن يرضى إلا بامتصاص آخر قطرة من دمائكم ، اذهبى اذهبى أيتها الضحايا المنكودة ، فإن مراد بك إن رضى بقضم اللحوم فإن وكيله خجا لا يشبعه إلا التهام الجلود .

ثم يأخذ محمود سمته إلى شارع البحر ، ويميل إلى متجر أوليفر نيكلسون فيراه جالساً ومذبته فى يده ، يذود بها الذباب عن وجهه ، وهو جهم الوجه حزين النفس يظهر عليه القلق والاضطراب . وكانت الصلة وثيقة العرا بين محمود ونيكلسون لتشابه فى أخلاقهما ، وللمعاملة المتصلة بينهما . فقد كان لمحمود متجر للمنسوجات الصوفية بالقاهرة ترك الإشراف عليه لابن عم له ، فكان يشترى البضائع من نيكلسون ويبعث بها إلى القاهرة ، وكان لنيكلسون اتصال وثيق أيضاً بأسرة البواب ، فقد كان له أخ يتجر

فى الأرز بدمشق فكان يبعث إليه به من مضرب البواب لثقته بأمانته وحسن معاملته . لذلك نمت الصداقة بين الأسرتين ، فكانت بنته لورا نيكلسون لا تجد لها فى رشيد صديقة أوفى ولا أكرم صحبة من زبيدة ، فأكثرت من زيارتها والائتناس بها .

حيا محمود صاحبه ، وجلس وهو يلهث من الحر والتعب وقال :

— أرأيت الزمر الحزينة البائسة وهى تهرول مستغيثة مولولة إلى مسجد زغلول ؟

— نعم يا محمود رأيتها ، وقد زادنى مرآها حزناً على حزن ، وألماً على ألم . إن هؤلاء المماليك جزارون لا يحسنون الذبح إنهم مصابون بجنون التدمير والتخريب ، وكم لاقت منهم مصر وتلاقى إن امتد بهم الحكم وطاولهم الزمان . إن مصر اليوم تحكمها طائفة من اللصوص الأشقياء الذين لا يقف شىء أمام جشعهم ، ولا يزعهم شرف ولا دين ، نهبوا كل ما فى أيدى المصريين ولم يعطوهم شيئاً ، فالوباء المتفشى فى الناس أشد من ظلم المماليك ، والجهل الذى عطل عقولهم أشد من هذين .

— هذا بلاء محيق لا كاشف له إلا الله ، فالناس يثورون فى كل يوم ، ولكنهم لا يلاقون إلا الجلد والقتل ، والتعذيب

وهتك الحرمات ، حتى لقد فر كثير من الأسر إلى دمياط والقاهرة لعلهم يجدون متنفساً .

— يفرون من المقلاة إلى النار ، كما نقول فى بلادنا . المماليك مماليك فى كل أرض وبلد . اشنقوه ، اقتلوه ، احرقوه . كلمات خفت على ألسنتهم وتكررت كأنها تراتيل القساوسة . أرأيت كيف يسيئون إلى الإفرنج فى كل حين ، على الرغم من أن لهم قناصل يحمونهم ، فكم صادروا متجر « فارسى » الفرنسى ومتاجر سواه ، وحينما كتبنا احتجاجاً إلى دولنا بأوربا لم يزدهم هذا إلا إيغالا فى العسف وإغراقاً فى النكاية .

— إنهم يبغضون الفرنسيين ويجاملون غيرهم أحياناً . ألديك أخبار جديدة عن الحرب بين الدول ؟

— قرأت أمس فى جريدة إيطالية صدرت منذ شهر ؛ أن العداء شديد مستحكم بين إنجلترا وفرنسا ، وأن الحرب قائمة بينهما على أشد ما تكون عنفاً وقسوة ، وأن أساطيل إنجلترا تجوب البحار لحماية شواطئها وحصر فرنسا وحليفاتها ، ومنع أى مدد يصل إليها ، وأن الفرنسيين بعد أن فتحوا إيطاليا والنمسا وخافتهم بقية الدول الضعيفة فى أوربا ، أصبحوا يصيحون فى كل شارع فى زهوة وشموخ قائلين : إلى إنجلترا . . . إلى إنجلترا . . . وكلما مر نابليون بونابارت

ذلك القائد الجديد الذى تمخضت عنه ثورتهم من حيث لا يعلمون ، صاحوا : إلى النصر . إلى إنجلترا . إلى العالم !

ــ هل تظن أن مصر ينالها شيء من شرار هذه الحرب ؟

ــ لقد أصابها الشرار فعلا يا بنى ، ألا ترى الكساد الذى نحن فيه وانقطاع الصادر والوارد ؟

ــ إذا هجم هذا البونابرت على بلادك ، أتسرع للدفاع عن حوزتها ؟ وماذا يكون من أمر لورا ؟ أتأخذها معك ؟ إنى أرى من الخير أن تدعها عند خالتى أم زبيدة فإنها تكون إذاً بين أهلها .

ــ لن أستطيع أن أسافر يا محمود بعد أن أصبح البحر شعلة من نار ، ثم إنى واثق أن بلادى لن تنال ، وأن لها من قلوب أهلها وشجاعتهم ، سوراً من فولاذ يصد عنها كل فاتح . إن غزوها محال ، ولكن الذى يهمنى ويقض على مضجعى ، أن يكون فى الأمر خدعة . والذى يخيل إلىّ أن هؤلاء الفرنسيين يظهرون أنهم يستعدون للهجوم على إنجلترا ، ليدفعوها إلى التفكير فى حماية ثغورها. والتفرغ إلى الاستعداد فى بلادها ، وليصرفوها عن النظر فى أية خطة أخرى . ثم هم من وراء ذلك يتجهون بجيوشهم وأساطيلهم إلى ناحية لم تخطر للإنجليز ببال . ويغلب على ظنى أنهم بعد أن عجزوا فى غزو إنجلترا سيوجهون ضربتهم إلى مصر ،

ليسدوا طريق التجارة الهندية فى وجه إنجلترا بالسيطرة على البحر الأحمر . وربما خطر لهم ، أن يتخذوا من مصر طريقاً لغزو الهند نفسها . لذلك أعددت لكل شىء عدته منذ أشهر ، فأسرعت فى جمع ما على عمـــلائى من ديون ، وعقدت شركة مع عامل متجرى « أورلندو » وهو رجل أمين أثق به ، حتى إذا صح حدسى ، ونزل الفرنسيون ، فررت من المدينة ، وتركت له تجارتى وهو إيطالى لا يمسه الفرنسيون بسوء .

ـ أنت رجل قوى الخيال يا نيكلسون ، والذى يستمع لحديثك هذا يظن أن أعلام سفنهم تخفق اليوم على ميناء الإسكندرية .

ـ إن الإنجليز يا محمود قد يصفهم الناس ببطء الفهم ، ولكنهم إذا فهموا لم يخطئوا شاكلة الصواب ،وكيفما يكن الأمر فلست أرى فى الحـــذر والحيطة بأساً ، فالسفينة التى سأسافر بها راسية الآن أمام المتجر ، حتى إذا حانت الساعة نقلت إليها ما أحتاج إليه ، وخرجت من المدينة بلورا على حين غفلة من أهلها . أين تسهر هذه الليلة ؟

ـ إننى أسهر عادة عند السيد إبراهيم الجمال . حيث نتحدث فى التجارة ونتعرف أخبار المدينة وحوادثها .

ـ إن اليوم عيد ميلاد لورا وقد أعدت لنا الليلة وليمة ،

وألحت علىّ أن أدعوك إليها ، فهل تستطيع أن تزورنا بعد الغروب ؟

— إننى أسر لكل ما يسر لورا ، وسأكون عندكم فى الموعد الذى ذكرت . وما أتم عبارته حتى سمع ضجيجاً وصياحاً وجلبة ، فنظر فإذا جمع حاشد كأنه البحر المائج ، فيه الرجال والنساء والأطفال وهم يصرخون ويولولون ، وأمام هذا الجمع علماء المدينة وقد اتجهوا جميعاً نحو ديوان الحاكم . فوثب محمود واندمج بينهم ، فلما انتهوا إلى الديوان زاد الضجيج وعلا الصياح ، وأخذ الأطفال يصفقون ويرددون عبارات يسجعونها وينغمونها مثل :

موجه رايحه وجيه موجه   غرقنا ظلمك يا خوجه

ومثل :

ما فينـــا إلا العريان   إيش راح نعمل يا عثمان

ودخل العلماء الديوان وهم فى حزن وغضب على ما أصاب مدينتهم ، فلما رآهم عثمان خجا — وكان متكئاً على أريكة — لم يتحرك للقائهم وبادرهم قائلا :

— لقد سئمت هذا اللعبة ومجتها نفسى ، كلما هممت بعمل فى هذه المدينة رأيتكم تتصدون لمعارضتى ، وتقفون فى طريقى ، حتى لم يبق علىّ إلا أن أستشيركم فى كل خطوة أخطوها . فتقدم إليه الشيخ صديق — وكانت إليه زعامة

البلد — وهو عالم تقى زاهد ، ذرب اللسان قوى العارضة ، يجبه الناس بالحق ولا يخاف فى سبيله أحداً ، فقال :

— ياحضرة الأغا ، كان يجب عليك أولا أن تقوم إجلالا للعلماء وتكريماً لهم ، والعلماء ورثة الأنبياء كما جاء فى الأثر الشريف ، فالذى لا يبجل العلماء لا يبجل الأنبياء والعياذ بالله ، وإذا رضيت لنفسك بهذا فإننا لا نرضى أن يقيم بمدينتنا من يتصف بهذا الوصف . ثم انفجر صائحاً : قم للعلماء أولا ، ثم تكلم بما شئت ، فإن لكل كلام كلاماً .

فأحس الأغا بما يحيط به من خطر ، ورأى أن الشيخ جاءه من ناحية الدين ، وأن أية كلمة يقولها ستنقلب عليه وبالا ، فتلعثم وقال : يامولانا ، إن العلماء سادة الناس جميعاً ، وإنى أول من يتقرب إلى الله بإرضائهم ، غير أن صياح هؤلاء العوام وما تجرءوا عليه من قذف الديوان بالطوب والأحجار ، سلبنى صوابى وقلب ميزان تفكيرى . ثم أخذ يصافح العلماء فى أدب ورعب ، فابتدره الشيخ قائلا :

— قلت يا حضرة الأغا : إنك سئمت هذه اللعبة ، فسميت الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى فرضه الدين على كل مسلم ومسلمة : لعبة . وهذا تعد على الشرع الشريف ، واستهزاء بأحكامه . واعلم يا حضرة الأغا أننا

سنستمر فيما تسميه : لعبة . ما دمت مستمراً فيما نسميه ظلماً وإرهاقاً ، ثم قلت مستنكراً : إنه لم يبق عليك إلا أن تستشيرنا فى كل خطوة تخطوها ، وقد أمر الله أشرف الخلق وسيدهم محمد بن عبدالله ، أن يستشير قومه ، وأين أنت من هذا المقام الأسمى ؟ وإذا كنت تأنف أن تتشبه بالنبي الكريم ، فتلك مسألة أنت تعرف سوء مغبتها . إنك لم تدع فى المدينة رطباً ولا يابساً ، ولم يبق فى الناس إلا رمق خافت تريد اليوم أن تأتى عليه . إن العلماء يقررون وقف الدروس فى المسجد وإغلاقه ، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . ثم هم الشيخ والعلماء بالخروج فتشبث بهم عثمان خجلا ، وهو يقول فى تعلثم الخبيث اللئيم ، الذى يريد أن يؤجل الضربة إلى فرصة قريبة : هذا أمر مراد بك الكبير وليس لى فيه يد ، وسأرسل إلى القاهرة اليوم رسولا لأرى رأيه فى الأمر .

فأجابه الشيخ صديق : ترسل أو لا ترسل ، إننا سنذهب إلى بيوتنا وسنغلق أبوابها ، وسنلتجئ إلى الله مستغيثين داعين أن يكشف عنا وعن أهل المدينة تلك الغاشية .

وبينما العلماء نازلون من السلم إذ هدأ الجمع المحتشد حول الديوان ، وإذا صوت يجلجل فى الفضاء خشناً مرعباً وهو يصيح :

خراب يابيت خجا خراب خراب يا بيت خجا خراب

كان ذلك صوت الشيخ على سريط ، وهو شيخ كان أول أمره طالباً ذكيًّا نابغاً بمسجد زغلول ، ثم تجرد لكتب التصوف وأكثر من قراءتها ، فاختلط عقله وأدركته جذبة ، فكان يقضى ليله ونهاره ماشياً فى طرق المدينة وهو عارى الجسم ، إلا خرقة يلفها حول وسطه ، وكان للناس فيه اعتقاد راسخ ينقلون عنه كثيراً من الكرامات ، فلما سمع الجمع نداءه انطلق يردد ما يقول كما يقصف الرعد : خراب يا بيت خجا خراب !

٣

كانت لورا تخطو إلى الثالثة والعشرين من سنها ، يزينها جمال فاتن وطلعة مشرقة ، وهى شقراء أميل إلى الطول منها إلى القصر ، معتدلة القد خفيفة الروح والحركات ، لها شعر ذهبى لماع كأنه إكليل من نضار توّجها به الجمال ، وعينان زرقاوان فيهما السحر وفيهما الفتنة ، وفيهما الوداعة وكرم الخلق وصفاء الضمير ، وكان لها جسم بض كأنه البلور المذاب ، يكاد لصفائه تنعكس عليه الأشباح والصور . ولدت لورا فى مدينة « بليموث » من مقاطعة

ديفنشير بإنجلترا ، وما مر على ولادتها أربعة أعوام حتى مرضت أمها ولم ينجع فى علاجها دواء ، فماتت ، وحزن عليها نيكلسون حزناً أوشك أن يقضى عليه ، وأقسم ألا يتزوج بعدها ، وأصابه شيء من الذهول كاد يكون خبلا ، فأشار عليه أبو زوجته أن يرحل من إنجلترا ، فغادرها إلى مصر ، وأخذ يتجر فى الصوف والحرير ، وترك لورا بإنجلترا عند جدتها لأمها ، فرأت فيها جدتها صورة من بنتها فشغفت بها وبذلت أقصى جهودها فى تهذيبها وتعليمها ، وسافر أبوها من مصر إلى إنجلترا فى صيف ١٧٩٠ فوجد ابنته وقد نضجت ثمرتها ، وبدت فيها صورة ناطقة من أمها ، ورأى أن بعده عنها فى بلاد الغربة قد كدر عليه صفو حياته ، وجعله عرضة للسأم والحنين والهواجس ، فعاد بها إلى رشيد ، وأخذ يلقنها العربية ويعمل على اتصالها ببنات الأسر العريقة بالمدينة .

وكانت تختلط بمحمود العسال لكثرة زياراته لأبيها للمسامرة والحديث فى التجارة ، ولأنها كثيراً ما كانت تراه عند زياراتها الكثيرة لأمه أو لزبيدة بنت البواب ، وكان محمود على ما وصفنا من وسامة ورجولة وخلق عظيم ، فأحست نحوه أول الأمر بشيء من الإكبار ، كما يعجب الأطفال بأبطال القصص التى تروى لهم ، ثم زاد هذا

الإحساس قليلا فصار رغبة فى مقابلته ومجالسته والحديث معه ، ثم نما فصار شغفاً بالتحدث عنه والإكثار من ذكره ، حتى كادت تسئم خادمتها الحاجة مبروكة ، ثم انقلب هذا الإحساس ولوعاً وحبًّا بالغت فى كتمانه ، واستعانت بكل ما تستطيع المرأة من رياء لكبته ودفنه فى صدرها ، فلم يره أحد ، ولم يشعر به أحد ، وبقى سرًّا غامضاً فى سويدائها لا تبوح به إلا لأحلامها ، ولا تهمس به إلا لوسادتها ، حينما تتقلب على سريرها قلقة تتمنى الأمانى وتتوجس العقبات: لم تسمع أن مسيحية تزوجت بمسلم ، وهى لا يمكن أن تفرط فى دينها من أجل حب ، وإن كان قاتلا . ثم إذا جاز فى الإسلام أن يتزوج المسلم بمسيحية ، فمن أين لها أن تعلم أن أباها سيرضى عن هذا الزواج ويباركه ؟ وإذا رضى أبوها فهل يحبها محمود كما تحبه ؟ وهل يطغى على المأثور من العادات فى سبيل ضمها بين ذراعيه ؟ إنه لم ينظر إليها نظرة مريبة ، ولم تطفر منه كلمة فيها أقل تورية أو تلميح ، وكل ما فى أمره أنه يختلط بالأسرة اختلاط الصديق الوفى الطاهر القلب ، الذى يجرى على سجيته ولا يبدو فى كلماته أو لحاته أو أعماله إلا اللطف والحنان ، إنه لم يعرف الحب ، ولم تهتز له أوتار قلبه ، إنه ملك كريم ، والملائكة لا يعشقون .

شغفت اورا بمحمود وكتمت غرامها ، وأصبحت تعلل نفسها برؤيته بين الحين والحين ، فطلبت إلى أبيها أن يدعوه لوليمة عيد ميلادها ، واجتهدت فى أن تجعلها حافلة بالألوان متقنة الطهو ، فقضت النهار كله مع مبروكة وخادمها عبد الدايم فى إعدادها ، وأكثرت من أنواع الكعك ، وتأنقت فى عمل « البودنج » حتى إذا جاء وقت العصر تفرغت لزينتها ولبست أجمل ما لديها من الحلل . أذّن مؤذن جامع « الإدفينى » للمغرب ، اتجه « نيكلسون » إلى داره حزيناً مفكراً ، حتى إذا قابلته اورا أخفى ما فى نفسه وغمرها بالعناق والقبل ، وقال باسماً :

— ماذا صنعت لنا سيدة الدار فى هذه الليلة ؟ إنى أشم روائح مشهية لألوان مختلفة ، وأكاد من السرور والجوع ألتهم السيدة الطاهية قبل أن ألتهم ما طهته من أصناف الطعام .

— إن السيدة الطاهية تحكمت اليوم فى مال أبيها ، وبذرت فيه تبذيرًا .

— إن الأب والمال لك يا فتاتى الحلوة ، فافعلى بهما ما شئت .

— نحن هنا يا أبى فى الشرق موطن الكرم وحسن الضيافة ، وقد أردت أن أحاكى زبيدة فيما تصنع من ولائم ، فأكثرت

من الألوان وخاصة بعد أن دعونا محموداً العسال . أوعدك بالحضور يا أبى ؟

ـ إنه أجاب مغتبطاً مسروراً . هذا الشاب أحبه كما أحبك يالورا ، لم أر فيه منقصة ولم أقع له على زلة ، ففيه الشهامة والصراحة ، والصدق والغضب للحق ، ونصرة الضعيف . إنه شهم يا لورا ، وطالما تمنيت لو يكون لى ولد مثله .

وهنا سمعت دقات على الباب ودخل محمود فحياهما ، وهنأ لورا فابتسمت له ابتسامة مشرقة ، وصاحت بخادمها أن يعدا المائدة . وكان نيكلسون بادى السرور والمرح ، كثير النوادر والنكات ، مسرفاً فى الضحك ، أما محمود : فقد استولى عليه وجوم عجز عن إخفائه ، وحاول كثيراً أن يندمج فى الحديث والضحك فظهر تكلفه ، وبان تصنُّعه . قال عليه نيكلسون قائلا :

ـ ما بال بطلنا الليلة منقبض الأسارير على غير عادته ؟

ـ هذه الحوادث التى جرت اليوم أزعجتنى .

هذا يا بنىّ يحدث فى كل يوم حتى اعتادته النفس ، ولو حزنا لكل ما نراه لقضينا العمر غمّاً وأسفاً . لا يا بنى ؛ أظن أن شيئاً آخر يحزنك ، فإنى ما رأيتك إلا باسماً مستبشراً ، وهذه ليلة لورا فكان عليك أن تكون فيها على أحسن ما تكون .

ـ الحق أن هناك مسألة تنغص علىّ حياتى كلها ، ولست

بغريب مني يا نيكلسون ، ولا أعدّ لورا إلا أختاً لى لا يكتم دونها حديث . لقد برح بى حب بنت خالتى زبيدة ، وكثيرًا ما كاشفتها بهذا الحب وهى تروغ منى وتلتمس المعاذير ، حتى إذا كدت أيأس منها ، وأيأس من نفسى. ذهبت إليها فى هذا الصباح لأظفر منها بوعد أو خيال من وعد ، فلم أنل منها إلا المماطلة والتسويف ، والإحالة إلى الأقدار .

سمعت لورا ذلك فأحست بقذيفة تنفجر فى قلبها فتذهب به بددًا ، فشخصت عيناها فى ذهول ، وأوشكت أن يغمى عليها ، لولا عزيمة جبارة انتشلتها من يد العواطف الثائرة . ثم نظرت إلى محمود فى شغف وألم وحسرة ، وقد طارت آمالها مع الرياح ، ودك ما بنته من الآمال والأحلام دكًا ، ورأت أن قلب حبيبها قد شغل عنها بسواها ، وأنه لم يبق به زاوية صغيرة يلجأ إليها غرامها العنيف القاتل ، وأن من عجائب القدر أن يشغف محمود بزبيدة أحب صديقاتها إليها ، وأقربهن إلى هواها وعطفها وحنانها . إن حبها له يحملها على صرفه عن زبيدة والضن به عن أية امرأة كيفما كانت ، ثم إن هذا الحب نفسه وما فيه من حنان ، يفرض عليها أن تبذل كل ما فى قدرتها لإسعاده وهناءته ، ولن يسعده إلا أن ينال يد زبيدة ، فهل يدفعها حبها إلى التضحية

بآمال حبها ؟ وهل يستطيع ذلك الحب أن يبلغ ذروة الشرف فيكتم ناره فى قلبه ، ويقضى على الغيرة الطبيعية التى تمزقه ، ويقنع بأن يرى حبيبه هانئاً سعيداً ؟ إن اجتذاب الحبيب بالإغراء وسيلة رخيصة لا تليق بحبها الطاهر ، والحب الذى لا ينال إلا بغمز العيون ومضغ الكلام ، قليلا ما يدوم .

نظرت اورا إلى محمود وهذه العواطف الجامحة تعتلج فى نفسها ، ولكن عزيمتها أبت أن يظهر منها أى أثر على وجهها ، وقالت :

ــ مسكين يا محمود ! ! لم أعرف أنك متعلق بزبيدة ، ولكنى أعرف أنها تهيم بذكرك ، وتكيل لك الثناء والمديح كيلا .

ــ يظهر أن الثناء غير الحب ، ويظهر أن شيطاناً عنيداً يتحكم فى رأس زبيدة ، ويحذرها من التزوج بى .

ــ هذا عجيب ! إن مثلك يا محمود تتمناه وتتشرف به أية فتاة رشيدية .

ــ الذى يهمنى أن أعرف هذا السر الذى يحول بينها وبينى .

ــ مسكين يا محمود ! ثم قالت وقلبها يكاد يتقطع حسرة وألماً : سأكون سفيرتك فى هذا الأمر يا محمود ، وسأبذل جهد الأخت الشقيقة حتى تفوز بأمنيتك . دع الأمر لى فإننا فى هذا المجال أمهر من الرجال وأشد تأثيراً .

ــ جزاك الله خيراً يا لورا ، وأرجو أن توفقى حيث خبت وتقطعت حبائلى وأشراكى .

وهنا أطل نيكلسون من النافذة ، فرأى فى الشارع طوائف من الناس يلغطون ، فظن أنهم يتحدثون فى شأن عثمان خجا ، ولكنه سمع أحدهم يقول : « إنه جاء من الإسكندرية ، ويقال إن السيد محمد كريم هو الذى أرسله » فظهر عليه الاضطراب ، وبرقت عيناه واصفر وجهه ، وقال لمحمود : يظهر أن الواقعة وقعت ، وأن شيئاً جللا حدث بالإسكندرية . هلم يا محمود لنعرف جلية الخبر . فى وديعة الله يا لورا ، وسأعود بعد ساعة .

ارتبكت اورا وظهر عليها الخوف ، وألحت على أبيها أن يكشف لها عن حقيقة الأمر ، ولكنه أسكتها بقبلتين ، وأثار شكوكها بدمعتين سقطتا على خديها ، وانصرف مع محمود مسرعين .

أخذ محمود يسأل المجتمعين عن سبب ضجيجهم ، فقال له أحدهم : إن صديقًا أكد له أن الإفرنج نزلوا الإسكندرية وامتلكوها ، وأن رسولا أرسله السيد محمد كريم محافظ الإسكندرية إلى عثمان خجا ليخبره بالأمر ، وأن الناس يذهبون أفواجاً إلى الديوان .

فأسرع محمود ونيكلسون إلى الديوان ــ وكان الزحام

حوله شديداً — فاخترقا الصفوف حتى دخلا ، فرأيا عثمان خجا ومعه الأعيان والتجار — لأن العلماء أبوا أن يستجيبوا لدعوته — وقد جلسوا وهم صموت يبدو عليهم الذعر والحيرة ، ورأيا رسول السيد محمد كريم واقفاً أمامهم . فاتجه عثمان خجا وقد جف ريقه وارتعدت أوصاله وقال للرسول :

— نبئنا بخبر هذه الداهية مفصلا . فقال :

— وصلت بالأمس إلى مياه الإسكندرية عمارة فرنسية عند مطلع الفجر ، فلما ارتفع النهار رآها أهل الثغر وقد غطت سفنها مياه البحر ، ولكنها لم تقف بالميناء بل اتجهت إلى ناحية العجمى ، فأرسل السيد محمد كريم طوائف العربان إلى هذه الجهة ، فرأوا أنها أخذت تنزل الجنود بالزوارق عند المكس بعد منتصف الليل ، حتى إذا تجمع الجيش سار فى ثلاث فرق نحو الإسكندرية . وحاول بعض عربان الهنادى مناوشة الجنود فلم يفلحوا إلا قليلا . وجمع السيد محمد كريم كل رجاله وجنوده فانهزموا لقلة عددهم وسلاحهم ، وقدم مدافعهم وتهدم حصونهم . ودخل الإفرنج المدينة فى صباح اليوم بعد أن قاومهم الأهالى فزقوهم بقذائفهم . أما رئيسهم : فيدعى : نابليون ، وهو شاب صغير السن نحيف الجسم ، ولكن جميع قواده يبجلونه ويخضعون له خضوع العبيد للسيد . وهو يدّعى أنه صديق الدولة العثمانية ،

وحبيب الإسلام والمسلمين ، وأنه لم يأت إلى مصر إلا لإنقاذ أهلها من ظلم المماليك . ويبلغ جيشه نحو الثلاثين ألفاً ، ومعهم من آلات الحرب ما لا عهد لنا به . وقد أظهر السيد كريم الخضوع لنابليون وشرع يساعده فى الظاهر فى جمع الخيل والجمال ، ودعوة العربان إلى مناصرته ، وأرسلنى إليكم سرّاً لتأخذوا حذركم وأسلحتكم وتحصنوا المدينة ، وتجمعوا الجنود والأهلين للقاء هذا الطاغية ، فقد يسقط جيشه على رشيد فى أى يوم . فقال عثمان خجا :

ـ لا بد من المقاومة والاستماتة فى الدفاع ، وربما استطعنا أن نلقن هؤلاء الإفرنج درساً لا ينسى .

فقال السيد محمد البواب ، وكان شيخاً فى الخمسين فارع الطول متين بناء الجسم ، جريئاً شجاعاً : إن حصون المدينة ضعيفة وأسوارها مهدمة ، ومحال أن يستطاع تقويتها فى زمن قصير .

فقال خجا غاضباً : هذا دأبكم دائمًا يا أبناء العرب ، لاتثبتون على الشدائد .

ـ نحن أثبت على الشدائد من الجبال ، ولكنا نحمل الآن أوزار ظلمكم وعبثكم بشئون البلد . أتظن يا أغا أن فى المدينة رجلا واحداً يرضى أن يشدّ أزرك فى قتال ؟ لقد

زهدتهم فى الحياة ، وأخمدت فى نفوسهم البطولة وحب الوطن . إنما يدافع عن وطنه من يشعر أنه ملهى صباه ومصدر مجده ، ومقر سعادته وموئل حريته ، وأن مافيه من أرض وماء وهواء ملك له ولسلالته من بعده ، أما من يعذب فى وطنه ويحرم خيراته ، ويساق إلى العمل كما تساق البهائم لينعم غيره وهو جائع ، فلن يعرف معنى للوطن ، أو معنى للدفاع عن الوطن .

فبهت عثمان أغا والتفت إلى التجار ، وقال : أهذا رأيكم فى رجال مدينتكم ؟ فانبرى إليه الحاج أحمد شهاب وقال :

ـ إن هذا ليس عاراً على أهل المدينة ، إنما العار على من يطلب من المذبوح أن يدفع عن نفسه . وهنا قام السيد محمد البواب وقام الأعيان منصرفين خلفه ، وتركوا عثمان خجلا يتحرق غيظا . ولو استطاع أن يقبض عليهم ويذيقهم صنوف النكال لفعل ، ولكن اضطراب المدينة واقتراب الأعداء لم يدعا له سبيلا لشفاء نفسه . ومال نيكلسون فى الطريق على أذن محمود يقول فى صوت خافت : سأرحل الليلة فقد أعددت كل شىء ثم أسرعا إلى الدار وأحضرا من يحمل المتاع إلى السفينة ، وغير نيكلسون ملابسه وتزيا بزى المغاربة ، وحمل فى منطقته مسدسين وأكياساً بها من الذهب ما يزيد على ألف محبوب . ولبست لورا حبرتها

والدموع تتساقط من عينيها ، وسارت معهما إلى السفينة . وهناك ودع نيكلسون صديقه وداع الأب الشفيق للولد البار ، وهمس فى أذنه : إذا قدمت القاهرة فسل عن الحاج محمد السوسى بسوق المغاربة . وتقدمت لورا نحو محمود باكية الطرف دامية القلب وهى تقول : إلى اللقاء القريب يا محمود ! ثم أقلعت السفينة وهبت الريح شمالية فدفعتها إلى الجنوب ، ووقف محمود حزيناً يقلب كفيه أسفاً ، وقد أحس أنه كان له جناحان فرماه الدهر فيهما . ثم نظر فرأى السفينة وقد التقمها اليم وطواها الظلام .

٤

فى يوم الثلاثاء الثالث من شهر يولية سنة ١٧٩٨ كانت رشيد كالبحر المائج المضطرب ، عصفت رياحه وتواثبت أمواجه . فكنت تسمع جلبة فى كل مكان ، وترى أفواجاً من الأهلين تساق بالسياط ، وجنوداً من الفرسان تعدو بخيولها هنا وهناك ، والبنادق فى أيديهم يهددون بها كل من لاذ بداره أو حاول الفرار . فقد أصدر عثمان خجا أوامر قاسية بأن يقوم كل رشيدى بالمعاونة فى تجديد الأسوار

وتقوية الأبواب والحصون ، وأن يعد كل رشيدى سلاحاً كيفما كان نوعه لقتال الغزاة الغاصبين ، ولم تستثن أوامره طفلا ولا شيخاً همًّا ولا مريضاً زمِناً فكنت لا تسمع إلا رنات السياط على الظهور ، وقصف المدافع والبنادق ممتزجاً بصراخ الأطفال ، وواولة النساء .

وفى صبيحة يوم الجمعة السادس من شهر يولية ، رأى الناس من المآذن جيشاً يبلغ عدده نحو ألفى مقاتل يزحف على رشيد بعد أن غادر أدكو . وهنا أعد عثمان خجا جنوده ، وكانوا لا يزيدون على مائة من الإنكشارية وبعض الباشبوزق ، وانضم إلى هؤلاء بعض الأهلين كارهين ، وقد سلحوا بالعصى والسكاكين ، وهجم الجنرال « دوجا » بجيوشه وآلاته الحديثة على رشيد عند الظهيرة ، وما كان أشد دهشته حين رأى جيش المماليك يفر من غير أن يجرد سلاحاً ، وحين رأى الأهلين يرحبون بقدومه ويحيونه تحية الفارس المنقذ ، أما عثمان خجا وسليم بك : فقد كانا فى الفرار أسرع من جنودهما ، فركبا النيل إلى دمياط .

دخل « دوجا » رشيد دخول الفاتحين ، وبقى بها يومين أو ثلاثة حتى قدم الجنرال « جاك فرنسوا مينو » الذى عينه نابليون حاكما لرشيد ، فهرع الأعيان وعظماء المدينة إلى استقباله ، وأظهروا البشر والسرور ، وتلقوه بالزمر والطبول ،

وأطلت النساء من النوافذ ومن فوق سطوح الدور ، يحيينه بالأغاريد ، وسلمت إليه مفاتيح المدينة فى حفل حافلٍ ، وقف فيه مينو فألقى خطبة مسهبة لخصها ترجمانه « إلياس فخر » فقال :

إن جناب الجنرال لن يتدخل فى الحكم الداخلى للمدينة ، ويطلب من الأعيان وكبار البلد أن يؤلفوا منهم ديواناً للنظر فى شئون الناس . ثم إنه يؤكد أن كل ما يشترى للجيش يصرف ثمنه للتجار ذهباً ، ويعلن ميله وميل دولته الشديد للإسلام ، وأنه سيكون أول من يذهب إلى المساجد للصلاة ، وأن حكم الجمهورية الفرنسية مؤسس على الإخاء والمساواة ، وأنه جاء لينشر العدل ويبدد ظلام الجهل والظلم .

كان مينو فى نحو الثامنة والأربعين من عمره ، ربعة فى الرجال، غليظ الوجه، ثقيل الملامح ، أشقر الشعر، دب الشيب إلى فوديه قليلا . وكان سريع التأثر ، يفعل ما لا يقول ، ويقول ما لا يفعل . سريع الغضب والرضا ، معتدًّا بنفسه، كثير الزهو بذكائه ، يعتقد أن حكمة الدنيا وفلسفتها أنزلت عليه وحياً ، وأن محجبات الغيب دانت لعبقريته طوعاً . وقد أدى به ذلك الاعتقاد إلى الصلف واحتقار آراء غيره ، ودعاه إلى العجلة وسرعة البت فى الأمور الخطيرة بلا أناة أو تفكير أو مشاورة . فجر عليه ذلك

بغض زملائه ومرءوسيه ، وسخطهم عليه والسخرية منه . وكان من أسرة نبيلة بفرنسا ، وربما زاد هذا النسب فى كبريائه على أنداده من رجال الحملة ، وربما أبطره عطف نابليون عليه عطفاً حار فى تعليله المؤرخون .

اجتمع العلماء والتجار وأعيان المدينة بمنزل السيد محمد البواب ، لينظروا فى هذا الحادث الجلل ، بعد أن صرح مينو بسياسته ، فقال الحاج أحمد شهاب : يظهر أن الله أراد الخير لهذا البلد المسكين ، فأرسل هؤلاء الفرنسيين لإنقاذه .

فقال الشيخ الخضرى : أفتى بعض العلماء تيمورلنك بأن الحاكم الكافر إذا كان عادلا ، خير من الحاكم المسلم إذا كان ظالماً . وهنا زفر الشيخ صديق ، وقال : صدق الله العظيم « يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون » .

فاتجه إليه الشيخ الخضرى وقال : يا مولانا لقد سمعناه اليوم يقول : إنه سيترك الحكم لأهل البلد ، وإنه يحب الإسلام ، وإنه سيؤدى الصلوات .

فوقف محمود العسال وقال : إنى لشديد العجب من أن أراكم ، وقد ضاع الوطن العزيز واستبيح حماه ، تسرون وتفرحون

ويهنئ بعضكم بعضاً بهذا الفتح المبين والنصر المؤزر . إننا نبغض المماليك ونضج من ظلمهم وطغيانهم ، فهل معنى هذا أن نترك الدفاع عن البلد لنستريح منهم بدخول عدو جديد ؟ عار أيها الناس وأى عار أن يقال : إن رشيد لم تدفع عن حوزتها دفاع الأسود ، وإنها قابلت فاتحيها بالطبل والزمور ! كان علينا ألا نقبع فى دورنا حتى يصلوا إلينا ، فقد قال ابن أبى طالب : ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا . بل كان يجب أن نقابلهم فى الرمال المحرقة فنبيد جموعهم فى الصحراء بين رشيد والإسكندرية ، ولكن لن يصلح قوم لا قائد لهم ! والأمم إباء وكبرياء ، فإذا مات الإباء وذلت الكبرياء بادت الأمم . قال هذا وخرج مسرعاً وقد عصف به الحزن والغضب ، وترك القوم واجمين ذاهلين ، وإذا صوت الشيخ على سريط يملأ جوانب الفضاء وهو يصيح : إذا ذهب الذئب وجاء الأسد ، فيا ضيعة المال والولد ! !

وبعد أيام أنشأ مينو ديواناً للأحكام عين به بعض العلماء والأعيان ، والفرنسيين والمترجمين . وأظهر فى أول عهده العدل والتسامح ، وبالغ فى الاختلاط بالأهلين ، فكان بيته فى كل ليلة مثابة للعظماء والعلماء . وكان يتحدث فى هذه السهرات عن عظمة فرنسا وقوتها ، وأنها اجتاحت

المالك وقهرت الأمم . وكثيراً ما كان يمازح الشيخ البربير ويبادله النكات . وكان من بين المترجمين على مودته والتقرب إليه السيد على الحمامى أخو زبيدة من أمها ، فإنه بعد أن عين عضواً فى الديوان أخذ يملأ الدنيا ثناء على الفرنسيين ، ويضع « الجوكار » وهو شعار الجمهورية على صدره فخوراً تياهاً ، حتى سماه بعض خبثاء المدينة « الأوفيسيال على » . أما محمود العسال : فكان يرأس جماعة الساخطين من شبان المدينة ، وكان يجهر برأيه فى حكم الفرنسيين غير هياب حتى لقد شكاه الضابط « لوى أوجست » نائب الحاكم العام إلى مينو مرات ، فكان يشفع له على الحمامى ، والسيد محمد البواب .

وكانت زبيدة فى هذا الحين مريضة طريح فراشها ، فإنها منذ رفضت مكرهة خطبة محمود ضاقت نفسها عن احتمال ما هى فيه من حب ورياء ، وأمل كاذب ، فتوالت عليها الأوهام وتزاحمت الآلام . ومضت الأيام والأسابيع ، وهى لا تزيد إلا سقما ، ولا تجد إلى الشفاء من سبيل ، وكانت تنتعش قليلا لزيارة محمود ويعود إلى وجهها شىء من نضارة الحياة ، حتى إن أمها كانت ترجوه أن يزورها فى كل يوم ، وما كان فى حاجة إلى رجاء . ولم تبق أمها دواء ولا بخوراً ولا حجاباً ولا تميمة ، إلا بذلت فيه المال الكثير

طامعة راضية ، ولكن المرض كان يطغى بزبيدة ويعصف بشبابها . زارها يوما محمود وقد كاد يبلغ بها الوصب غايته ، فأطفأ بريق العيون ومحا نضارة الخدود ، ولم يبق منها إلا هيكلا من جمال قديم ، فنظرت إليه فى شغف ويأس ، وقالت :

— مسكين يا محمود ! إن الزهرة التى سقيتها بدمعك ، وأدفأتها بزفراتك ، وغرستها فى سويداء قلبك ، وكنت تغار من النسيم أن يمسها ، ومن الطل أن يلثمها ، ومن الشمس الضاحكة أن تداعب أوراقها ، وكنت تباهى بها الأزهار وتتحدى البساتين — قد هبت عليها عاصفة هوجاء فتركتها هشيما ، واصطلحت عليها الأنواء فغادرتها حطاماً . انظر إلىّ يا محمود فهل ترانى كما كنت أكون ، أو كما كنت تحب أن أكون ؛ الشباب والصحة جمال الجمال ، والشباب والصحة جمال الروح ، والشباب والصحة جمال الحياة . إنى أحس وأنا راقدة فى فراشى أن هذا السرير يعدو بى إلى الموت عدواً ، وأود أن أملأ عينى من كل شىء فى الحياة ، قبل أن أفارق الحياة ! !

كان محمود حزيناً مطرقاً ، يغالب دموع عينيه ويكبت زفرات صدره ، فالتفت إليها وقد تكلف الابتسام قائلا :

— أنت تفارقين الحياة ؟ هذا مستحيل ! إن الله أرحم

بعباده من أن يفجعهم بهذه الفجيعة . إن روحك يا زبيدة متصل بكل روح ، وقلبك يرسل الحياة والأمل إلى كل قلب ، فهل تظنين أن الله يطفئ روحاً بها حياة الأرواح وأمل القلوب ؟ إن زهرتى إن ذبلت اليوم فإن فى جمالها الكامن ما يتحدى العواصف والأنواء ، وسنراها غداً ، وهى تتخايل فوق غصنها ناضرة فتانة .

وهنا ألقت بيدها النحيلة بين يديه وقالت : أين لورا ؟ إنها لم تعدنى !

— لقد سافرت مع أبيها منذ دخول الفرنسيين ، ولا أعلم أين استقرت بهما النوى .

— إنها أجمل فتاة رأيتها خَلقاً وخُلقاً ، ولو أنها كانت مسلمة لكانت خير زوجة ، إنها الحنان والعقل لفا فى أبدع صورة من صور الجمال ، فهل نراها مرة أخرى ؟ !

— إن سفن الحياة تفترق وتلتقى فى بحر العمر المائج ، والحب كفيل بألا يطيل الفرقة بين الشتيتين .

وهنا دخلت أمها فرأتها باشة مستبشرة ، فقالت له : أنت شفاء ابنتى يا محمود ، وكأن فيك سحراً يبعث فى جسمها العافية .

فالتفت إليها محمود قائلا : تعالى يا خالتى نتحدث فى الأمر حديث جد وصراحة . هذه الأحجبة وهذا البخور لا تفيد شيئاً ، إن زبيدة لا تشكو إلا وعكة تزول إن شاء

الله ، إذا اتخذت الوسائل الصحيحة لعلاجها ، أتمانعين في أن يراها الطبيب « شوفور » الفرنسي ؟

ــ أيجوز يا بني أن يرى الطبيب الإفرنجي بنتي ، وأن يكشف عن جسمها كما يفعل بالرجال ؟

ــ كان يقول لنا شيخنا الخضري : « إن الضرورات تبيح المحظورات » وسلامة زبيدة من أشد ضرورات الدنيا . أنا ذاهب لأدعوه . ثم انطلق كما ينطلق السهم وعاد بعد ساعة ومعه الطبيب « شوفور » وهو رجل قضى برشيد أكثر من عشر سنوات ، وعرف أهلها واختلط بأسرها . فلما فحص زبيدة اتجه إلى محمود وقال : إن حال زبيدة لا يقتضي الانزعاج بتاتاً . إن كل أجهزتها سليمة طبيعية ، ويغلب على ظني أنها مصابة بمرض الأعصاب ، وهي تحتاج إلى الهدوء وإلى كل ما يبعث السرور في النفس ؛ وسأرسل لها دواء أرجو أن يكون شافياً . ثم ضحك وقال : لا تخافوا شيئاً إنها بخير . وبعد أن أطرق إطراق المفكر قال : أظن أن تغيير الجو الذي هي فيه ، والسفر إلى مدينة أخرى سيكون لها أشفى من ألف دواء . فقالت أمها :

ــ إن خالتها زوج السيد أحمد المحروق بالقاهرة قد أرسلت منذ يومين رسالة تتشوق فيها إليها وتلح في طلبها .

ــ هذا خير ما يكون . وبالقاهرة من أشهر أطباء الحملة

الطبيب « ديجنت » ، فلو توصلتم إلى أن يراها لشفاها فى أقرب وقت .

ثم انصرف الطبيب بعد أن ترك وراءه فى الدار روحاً من الأمل والابتهاج ، ورأت نفيسة ووافقها محمود وجوب سفر زبيدة إلى القاهرة ، وأقنعت الأم السيد محمداً البواب بذلك فاقتنع . وكانت سفينة عظيمة محملة بالأرز على وشك السفر ، فأعدت بها غرفتان ، وسافرت بها زبيدة وأخوها على الحمامى . وبعد سفرها أحس محمود بالوحشة والقلق ، وضايقه جواسيس الفرنسيين ، فوطد العزم على الرحيل إلى القاهرة ، فسافر إليها بعد عشرة أيام .

٥

حينما جاوزت السفينة بنيكلسون وابنته لورا معالم رشيد ، أحست لورا بكثير من الحزن على فراق وطنها الثانى ، وموطن حبيبها الأول ، وذكرت أيام سرورها ومجالس البهجة والأنس بين صديقاتها ، وتفتت قلبها حسرة على فراق محمود ، لأنها رأت فى لحظة أن صروح آمالها قد تهدمت مرتين : مرة بانصراف هواه إلى زبيدة ، ومرة بتلك الضربة القاسية التى قضت بتفريقهما وحرمانها أن تتمتع بمشاهدة وجهه الوضاح ،

وسماع حديثه الساحر . وجلس نيكلسون مهموماً مفكراً كثير القلق ، وأخذ يستحث النوتى على الإسراع ونشر جميع القلوع ، ويمنيه الأمانى إذا سابق الرياح ولم يعوق ، لأنه كان يريد أن يصل إلى القاهرة قبل وصول الحملة إليها . وصلت السفينة إلى شاطئ بولاق بعد سبعة أيام ، فنزل نيكلسون ولورا واستأجرا حميراً لحملهما وحمل أمتعتهما إلى خان بالقرب من مشهد سيدنا الحسين ، حتى إذا استقرا فيه يومين ، كان نيكلسون قد اهتدى إلى دكان صغير بسوق المغاربة وضع فيه قليلا من البضائع ، واستأجر داراً صغيرة بالكحكيين فانتقلا إليها . وحينما وضع نيكلسون قدمه بالقاهرة رآها فى هرج ، واضطراب وذعر ، فقد وصل إليها الرسل الذين بعث بهم السيد محمد كريم إلى مراد بك ، وعقد اجتماع بقصر إبراهيم بك حضره مراد بك وأبو بكر باشا والى العثمانيين ، وقواد المماليك ، وكبار العلماء ، وفى هذا المجلس أظهر المماليك الغرور والاعتداد بالقوة ، فقرروا سجن قنصل فرنسا وجميع التجار الفرنسيين بقلعة الجبل ، وأن يستعد مراد بك للسفر لمقاومة الفرنسيين ودحرهم قبل أن يصلوا إلى القاهرة . وفى اليوم التاسع من شهر يولية زحف مراد بك من الجيزة ، وكان بالجيش كثير من المدافع والبارود ، وقد بلغ عدد جنوده من فرسان المماليك ونشاة الإنكشارية

ما يزيد على ثمانية آلاف ، وصحبه فى النيل نحو خمس وعشرين سفينة مسلحة ، يقودها على باشا الطرابلسى ، ونحو خمس وثلاثين من السفن التى تحمل الجنود والذخائر والمثونة . وبقى إبراهيم بك الكبير معسكراً فى بولاق فى ألفين أو أكثر من المماليك ، ينضم إليهم بعض الجنود المرتزقة والعربان والأهلين المتحمسين . ووصلت الأخبار بعد أيام بهزيمة مراد بك فى موقعة شبراخيت ، واحتراق ذخائره بقذيفة ألقتها العمارة الفرنسية على إحدى سفنه ، وعلم أهل القاهرة أن طلائع التمرد بدت فى جنود نابليون ، لطول الشقة وقلة الغذاء ، وشدة الحر وقحول الأرض ، حتى وصلوا بعد جهد إلى قرية أم دينار فى اليوم التاسع عشر من يولية ، ورأوا الأهرام شامخة متحدية . وفى اليوم التالى رأوا جيش المماليك على ضفة النيل اليسرى . وقد امتدت صفوفهم بين إمبابة وسفح الأهرام ، وكانوا فى نحو أربعين ألفاً ، وكان الفرنسيون فى نحو ثلاثين ألفا . وهنا وقف نابليون يستحث جنوده ، ويشير إلى قمم الأهرام وهو يقول قولته المشهورة : « إن أربعين قرناً من الزمان تنظر إليكم » .

ولكن الأهرام التى سمعته أرسلت إليه نظرة ساخرة من مؤخر عينيها ، ثم ابتسمت فى ازدراء وأنفة ، لهذا المخلوق

الذى توهم أنه يستطيع أن يخرق الأرض ، وأن يبلغ الجبال طولا .

خرج نيكلسون صباح اليوم الحادى والعشرين إلى معسكر إبراهيم بك ببولاق مع طائفة من المغاربة ، فرأى الطرق وقد ازدحمت بالذاهبين إليها لأن جميع المتاجر والحوانيت بالقاهرة أغلقت فى هذا اليوم ، ولم يبق بها إلا النساء والأطفال والشيوخ . وبدأت المعركة بين الفرنسيين وجيش مراد بك عند الظهيرة ، وفتك الفرنسيون بالمماليك ، وتم لهم الغلب عند الغروب ، وفر مراد بك إلى الجنوب ، وتقدم نابليون ببعض قواده حتى وصل إلى قصر مراد بك بالجيزة ، وكان قصراً فخماً رفيع البنيان ، ثمين الأثاث والرياش به كثير من مخازن الزاد والذخيرة . ولما وقعت الواقعة رجع نيكلسون مع الراجعين والهموم والأحزان تخيم على الجموع ، والذعر يعصف بالقوم عصفاً .

ذهب نيكلسون إلى داره فطرق الباب ، فأسرعت لورا ففتحته وهى ترتعد من الخوف ، وقد طار الدم من وجهها . فلما رأت أباها رمت بنفسها بين ذراعيه ، ولم تستطع أن تحبس عاصفة من البكاء كانت قد كبحتها طول يومها فضمها أبوها إلى صدره فى رفق وحنان وتركها تبكى لتروح عن نفسها وتخفف من أعباء أحزانها ، ثم أخذت تضحك

كالمحموم ، وتملأ وجه أبيها قبلا ، حتى إذا هدأت النوبة التفتت إلى أبيها كالمتفرسة وقالت :

ـ أنت بخير يا أبى ؟

ـ بكل خير أيتها الفتاة المحبوبة المعربدة ، الباكية الضاحكة .

ـ إن أفواجاً من الناس مروا منذ لحظة من الحارة وهم يلطمون وجوههم ويصيحون : يا لطيف . . يا لطيف . . !

ـ ومن أحوج منهم إلى الاستغاثة بالله يا فتاتى، بعد أن قضى الأمر وامتلك الفرنسيون مصر ؟ !

ـ انهزم المماليك ؟ !

ـ شر هزيمة ! فقد هجم مراد بك بنحو خمسة آلاف من فرسانه على فرقة « دوجا » فصدته مدافعها ، ثم هجم على فرقة « ديزيه » وكان هجومه شديداً ، فحصد ديزيه المماليك حصداً ، فانقلبوا إلى فرقة « رينييه » فقابلتهم بنار حامية ، وهنا ثبت المماليك وزلزل الفرنسيون زلزالا شديدا ، وكانت المدافع تقصف كالرعد ، ودخانها يسد الأفق ، ولكن الفرنسيين صبروا وصابروا حتى حصروا المماليك بين فرقتى « ديزيه » و « رينييه » فأخذهم الموت من كل جانب ، وقذف كثير منهم بأنفسهم فى النيل واستطاعت شرذمة قليلة أن تفر مع مراد بك إلى الجنوب ، بعد أن أحرقوا

سفنهم ، فسقط فى يد الجيش كله ، واستولى الفرنسيون على مدافعه وأسلحته ومئونته ، وكانت النكبة ماحقة . أما إبراهيم بك ومماليكه بالشاطئ الشرق : فقد فروا بأموالهم وذخائرهم إلى بلبيس ثم إلى الشام ، عندما تبينت لهم الهزيمة . ولا أدرى لم فرق المماليك جيوشهم على الشاطئين ؟ ولم تهاونوا فلم يدهموا نابليون فى طريقه بين الإسكندرية ودمنهور ، حينما كان الجوع والظمأ والقيظ قد فكك عزائم الجنود وأوهن قواهم ؟ !

ــ يا للخيبة ؟ لقد كان مراد يظن أن ضربة من سوطه تكفى لسوقهم إلى بلادهم !

ــ إن المماليك متنافرو القلوب مفككو العزائم ، وقد استناموا إلى الراحة منذ عهد بعيد وأهملوا الاستعداد لكل مفاجأة . ثم إنهم اعتادوا الحرب على نمط قديم ، فلم يستطيعوا الوقوف أمام فنون أوربا وآلاتها الحديثة .

ــ وأين نابليون الآن ؟

ــ نائم يا حبيبتى ملء جفنيه ، على سرير مراد بك بعد أن ملأ بطنه من شهى طعامه وشرابه . وسيدخل القاهرة غداً فاتحاً منصوراً .

ــ مساكين هؤلاء المصريون ! لقد أصبحوا نهبة لكل ناهب . ولم جاء نابليون إلى مصر يا أبى ؟

ــ جاء ليسد على إنجلترا طريق الهند أو ليفتح الهند كما يزعم . ثم ابتسم ابتسامة حزينة : وقال عجيب شأن هذا الرجل المغامر ! كيف يترك أوربا الآن ومراجلها تغلى بالثورات والفتن والحروب ، ليطوح بجيشه فى بلاد بعيدة ، بينها وبين فرنسا بحر يتحكم فيه الإنجليز بأساطيلهم ؟ والأدهى والأمر أنه ضمن الخلود فى مصر قبل الوصول إليها ، فأحضر معه طوائف من العلماء والفنانين فى أكثر شعب العلوم والفنون .

ــ وهل تغضى عنه إنجلترا ، يا أبى ، وتترك له الحبل على الغارب ، يتحكم فى بلاد الله كما أراد ؟

ــ سنرى أيتها السياسية الخطيرة . ثم قرص خدها فى حنان وقال :

ــ ولو كنت فى كرسى « وليم بت » فماذا كنت تصنعين ؟

ــ لا تسخر منى يا أبت ، فلو كنت فى كرسى وليم بت لدرست الموضوع من جميع أطرافه ، وقررت ما يهدينى إليه رأيى ، بعد استشارة رجال الجيش والأسطول .

ــ وإذا هداك رأيك بعد كل ذلك إلى ترك نابليون ، أتتركينه ؟

ــ أتركه ولا أدع عينى تفارقه حتى يحين حينه ، وحتى يفتل لنفسه حبلا ليشنق به رقبته .

ــ حقًّا إنك إنجليزية إلى أطراف بنانك ؛ إن إنجلترا لن تغضى طويلا عن رجل يريد أن يعبث بسيطرتها على البحار.

ــ والمصريون ! أينامون على الضيم ؟

ــ إن المصريين سيكونون أشد ويلا على الفاتح من الإنجليز ، لأن دخول الفرنسيين في نظرهم ليس مشكلا وطنيًّا فحسب ، وإنما هو مشكل ديني قبل كل شيء . وقد ظن نابليون أنه يستطيع أن يضحك من ذقونهم بالمنشورات التي يعلن فيها أنه يحب الإسلام ويبغض المسيحية ، ويدين بالاحترام والطاعة للدولة العثمانية . رأيت اليوم طالباً من الأزهر يقرأ منشوراً من هذه بين جمع حافل من إخوانه ، فلما انتهى من قراءته قال ساخراً : ما شاء الله ! إن الشيخ الشرقاوى سيجد له منافساً فى مشيخة الأزهر . وقال ثان : ما أحقرها حيلة ! إنه يبيع دينه ليلتهم مصر ، ثم يظن أننا نصدقه . وقال ثالث : هنيئاً للمسيحية حين نقصت واحداً ، ويا ويلتا للإسلام بزيادة هذا الواحد !

هذه يا حبيبتى نفسية هذه الأمة الهادئة الوادعة . إن فيها ذكاء مكبوتاً ، وفيها بطولة مدفونة ، وهى كالنار تحت الرماد تضطرم وتستشرى إذا مسها جائحة فى دين أو عرض أو وطن ، فاصبرى قليلا فترى كثيراً .

ــ كيف حال محمود العسال يا ترى فى وسط هذه العواصف؟

ـ إنى لشديد الخوف عليه ، فإنه عظيم الأنفة قوى الشكيمة ، مخاطر فى حب وطنه .

ـ لا تخف عليه يا أبى ، فإنه إلى ذلك حازم حذر ، لا يضع قدمه إلا حيث ترى عيناه . آه ! لقد كانت أيام رشيد هانئة سعيدة ، ولقد لقينا فيها أهلا بأهل ، وأوطاناً بأوطان .

ـ إن نظام الكون مؤسس على الإعادة والتكرار ، فالشمس تعود ، والقمر يعود ، وفصول السنة تعود ، فهل من البعيد أن نعود كما كنا إلى رشيد ؟

ـ وماذا ستعمل الآن يا أبى حيال هذه الكارثة المصرية الإنجليزية ؟

ـ سأخدم وطنى ، وسأخدم مصر بكل ما فى مكنتى من فكر وقوة وحيلة ، وسأنتظر ما تجىء به الأيام .

دخل نابليون القاهرة واستقبله علماؤها وأعيانها بما يستقبل المغلوب الضعيف غالبه القوى الظافر ، ونزل بيت محمد الألفى الكبير ، وكان قد تم بناؤه وتأثيثه قبل الحملة بأيام ، وأظهر البشر والمجاملة والعطف على المصريين ، ورأى أن يجتذب إليه العلماء وكبار البلد ، فألف منهم ديواناً للأحكام ، وأغدق عليهم ، مدعياً أنه يدع للأمة حكم نفسها بنفسها ، ثم عين من قواده حكاماً لأقاليم الوجه البحرى : وترك « دوجا »

يتعقب مراد بك بالصعيد . وكان نيكلسون يختلف فى كل يوم إلى قهوة مجاورة للأزهر ، ليلتقط الأحاديث ، ويتعرف نفوس الشعب ، فكان لا يسمع إلا سخطاً على الفرنسيين ، وسخرية من وعودهم ، وحنقاً على العلماء وعلى كل من يمد يداً لمعونتهم ، وفى ذات يوم دخل القهوة حشد من طلاب الأزهر ، يتقدمهم الشيخ إسماعيل البراوى ، وهو عالم أزهرى ضخم الجثة ، عرف بالجرأة والسلاطة وبغض الفرنسيس ، فما جلس الشيخ حتى صاح : أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة ، أسمعتم الأخبار اليوم ؟ إنها كارثة الكوارث ، وقاصمة الظهر لهؤلاء الفرنسيس ! لقد سمع بعض الناس اليوم من أحمد الزرو التاجر بوكالة الصابون ، أن عمارة إنجليزية حطمت أسطول الفرنسيين بأبى قير فى الثامن عشر من شهر صفر وقتلت قائده وكثيراً من بحارته ، حتى لم يبق منه إلا أربع سفن صغيرة ، فشمل الفرح كل مكان ، وهبت رياح الثورة فى كل إقليم ، والآن ماذا بقى لهؤلاء الفرنسيين إلا أن نصيدهم كما تصاد الفيران ؟

فقال أحد الحاضرين : إنى سمعت أن رئيسهم ذهب مع جيشه لمحاربة إبراهيم بك فى الصالحية .

فقال الشيخ البراوى : لا بد أن يسرع إلى القاهرة ،

وإذا كان بالقاهرة رجال حقاً يحبون دينهم ووطنهم ، فإنه لن يبقى بها يوماً أو بعض يوم .

فتهللت وجوه الحاضرين ، وصاحوا : نحن معك يا شيخ إسماعيل ، ولا بد من استئصال شأفة هؤلاء الغزاة .

ــ وهنا أسرع نيكلسون ليبلغ لورا الخبر السار . وبعد أيام قدم نابليون من الغزو ، فبهت حين ألقى إليه خبر دمار الأسطول ، ثم عاد إلى جلده واستخفافه بالشدائد ، وأراد أن يهون الكارثة على الجنود ، فخطب فى قواده خطبة حماسية جاء فيها: « إذا قضى علينا أن نبقى هاهنا بمصر وأن نعمل المعجزات ، فلنبق حيث نحن صلاباً غلابين ، وإذا قضى علينا أن ننشئ مملكة فى الشرق ، فلننشئها أشداء فاتحين ، وإذا فصلت البحار بيننا وبين بلادنا ، فإنه ليس ثمة بحار بيننا وبين إفريقية وآسيا . ولا نزال فى عدد وعدة ، وفى استطاعتنا أن نتخذ من أبناء هذه البلاد جنوداً أقوياء ، وفى استطاعة "شامبى" و" كونتيه " أن يمدانا بما شئنا من ذخائر وعدة ، فلنكن عظماء ، ولنعمل العظائم ، ولنرفع رءوسنا ، ولنهزأ بالزعازع ، فقد يكون القدر قد كتب لنا أن نغير صحيفة الشرق ، وأن نضم أسماءنا إلى أسماء عظماء الرجال الذين خلد التاريخ ذكراهم » . ثم أراد أن يظهر أمام المصريين بمظهر القوى الذى لا تنال منه الخطوب ، فاحتفل

بفتح الخليج احتفالا باهراً ، ثم بالمولد النبوى ، ثم بعيد الجمهورية الفرنسية .

٦

وصلت السفينة إلى شاطئ بولاق مقلة زبيدة وأخاها عليًّا الحمامى ، ولم تمض ساعة حتى بلغا بيت السيد أحمد المحروق ، بالقرب من الفحامين . وكان المحروق فى ذلك الحين رئيس التجار . وكان عظيم الثروة والجاه ، سخى الكف نهاضاً بالأعباء ، ذكى الفؤاد واسع الحيلة . ولما دخل الفرنسيون القاهرة فر مع إبراهيم بك ، ولكنه عاد إليها واستطاع بدهائه وماله أن يجتذب إليه قلوب الفاتحين ، وأن يستعبدهم بإحسانه وإغداقه .

مدت أمينة خالة زبيدة إليها ذراعيها فى شوق وشغف ، فطوقتها بهما وهى تقول : أهلا بزهرة رشيد الناضرة ، التى لم تتحل بمثلها بساتين القاهرة ، إن نسيم البحر الأبيض إذا تزاوج بنسيم النيل الهفاف ، ولدا ذلك الجمال البارع الذى يتحدى ريشة كل رسام . فضحك السيد أحمد المحروق وقال عابثاً :

— إنها يا زبيدة امرأة لعوب فاحذريها ، إنها تتخذ منك

وسيلة لإطراء نفسها ، والمباهاة بحسنها . ألم ترىْ أنها بحركة لوابية سريعة حصرت الجمال كله فى رشيد ؟ فابتسمت أمينة ابتسامة خفيفة ونظرت فى المرآة بحركة لا تحس ، وقالت :

ــ هذا دأبك دائماً ، تسىء التأويل ، وتوجه الكلام إلى غير وجهه . وهل لامرأة عجوز مثلى فى السابعة والثلاثين ــ ثم لمحت المرآة ثانية ــ أن تتحدث عن جمالها ؟ ولكنى أعتقد أن رشيد وهى ميناء أقطار الشرق والغرب ، توافد عليها النزلاء من كل صوب ، وامتزجوا بأهلها وأصهروا فيهم ، فأخرجوا نسلا قوياً جميلا . إن السلالات البشرية تضعف وتتضاءل إذا لم تختلط بها العناصر والأجناس !

ــ دعينا من هذه الفلسفة أيتها العجوز الفاتنة ، وحدثينا يا زبيدة عن رشيد وأحوالها . فقاطعته زوجه متعجلة واتجهت إلى زبيدة :

ــ لقد هدت رسالة أمك قواى حين قالت : إنك مريضة ، ولكنى لا أرى للمرض عليك أثراً ، فما حقيقة الأمر ؟

ــ لقد كنت مريضة أشد المرض ، ولكن الطبيب « شوفور » وصف لى علاجاً وأشار على بالرحلة إلى القاهرة ، فما كدت أقضى بالسفينة أياما حتى أحسست دبيب العافية .

ــ حماك الله من كل مكروه يا حبيبتى . وكيف حال أمك وأبيك ؟

ـ أما أمى فبخير ، وأما أبى فإنه كثير الوجوم والحزن منذ دخول الفرنسيين .

وهنا قال المحروقى : أظنهم لا يظفرون بحب أهل رشيد .

ـ لا أدرى . لقد كنت مريضة منذ دخولهم ، وأظن أنهم لا يبلغون فى الظلم مبلغ المماليك . وهنا دخل ابن خالتها محمد المحروقى ، وكان فتى وسيما فى التاسعة عشرة من عمره ، فحيا زبيدة وجلس وهو يلقى إليها نظرات طويلة ، فيها ذهول وإعجاب ، وفيها نهم الشباب . والتفتت أمينة إلى الفتى والفتاة ، ثم همست فى أذن زوجها فهز رأسه وقال :

ـ نعم الفكرة ! نرجو الله أن يهيئ لنا الخير . ثم التفت إلى ابنه وقال : هلم يا بنىّ ، فقد آن لنا أن نراجع دفاتر حساب اليوم .

وانفردت أمينة ببنت أختها كالمشغوفة الوالهة ، لأنها أثارت فى نفسها ذكريات عزيزة عندها ، أثيرة لديها . فقد شاهدت فى زبيدة صورة شبابها الغض ، الذى كان فتنة العيون ، وشرك القلوب .

ثم قالت : علمت من أملك أن محموداً العسال يلح فى زواجك وأنك تأبين . إن محموداً شاب تطمح إليه عيون الفتيات ، ولكن للقلوب أسراراً لا تدرك ، ولهواها سرائر لا تعلم . ولعل لك آمالا تسمو بك عن رشيد وأهلها ، ولعلك

تودين أن تكونى بالقاهرة كخالتك ، جليسة نساء الأمراء والكبراء وأرباب الدولة . إننى أرحب بك يا زبيدة فى هذه الدار سيدة مسيطرة ، وأقصى أمانى أن أراك زوجاً لابنى محمد ، وهو شاب كريم الخلق ، رفيع المنزلة ، يمهد له أبوه السبيل من بعده ، ويمد له أسباب الشهرة مدًّا . ألا تحبين يا زبيدة أن أكون أمًّا لك ثانية ؟ ! إن شمسك فى رشيد لا يتسع لها الأفق ، أما هنا فستنفذ أشعتها بعيدة وضاءة ، وسيتحدث كل بيت من بيوت الأمراء والأعيان ، عن زبيدة وجمال زبيدة .

أطرقت زبيدة وطال إطراقها ، وجال بخاطرها سريعاً أن العرض مقبول ، وأن زواجها بابن المحروقى سيكون من ورائه الثروة والشهرة ، والجاه العظيم ما فى ذلك شك . ولكن أين هو من محمود العسال كيفما أطنبوا فى وسامته وكريم خلقه ؟ ! لا شىء ! إن فى محمود تلك الرجولة الخشنة التى تشتهيها كل فتاة ، لتكمل بها ما فى أنوثتها الناعمة من نقص . لا . . . شتان ما بين الرجلين ! ثم ما لها ولمحمود وغير محمود . إن للعرافة نبوءة يجب أن تتحقق ، وهى واقعة لا محالة إذا أطالت لها عنان الصبر . فرفعت رأسها إلى خالتها وقالت : يجب يا خالتى أن ننسى الحديث فى الزواج الآن ، حتى تزول تلك الغمة التى أطبقت على مصر ، وحتى نرى آخر

سفينة وهى تحمل الفرنسيين إلى بلادهم . إن زواجى بابن خالتى شرف لا يناله مثلى ، ولكن الزواج الآن أشبه بالضحك فى المآتم . والرقص فى بيت يحترق . فنظرت إليها أمينة نظرة الخبيرة الطبة بالنساء وخداعهن ، ثم تنهدت وقالت : كثيراً ما يرغب الإنسان عن الثمرة الدانية و يأبى إلا أن يتسلق لغيرها ! ومن يدرى ؟ ثم ضحكت وقالت : تعالى أيتها الفتاة المقدرة المدبرة فقد أعد الطعام .

مرت أيام فسافر على الحمامى إلى رشيد ، وبقيت زبيدة فى بيت خالتها ، تلاقى فيه صنوف الكرامة والعطف ، وتزور بها خالتها سيدات القاهرة وكرائم أسرها .

وبينما هى جالسة ذات صباح مع خالتها إذا إحدى الخادمات تقول : إن سيدى محموداً العسال قد حضر ، وهو يصعد فى السلم . فأسرعت زبيدة إلى شعرها تسويه ، وإلى ثوبها تصلح من غضونه ، وقد دق قلبها واحمر وجهها ، ولمحتها خالتها فتنهدت . ثم دخل محمود مشرقاً بساماً ، فحيا زبيدة وقبل يد خالته أمينة ، التى أخذت تصب عليه وابلا من عبارات الترحيب ومختلف الأسئلة ، فقص عليهما كل ما لديه من أخبار رشيد . وهنأ زبيدة بسلامتها ، ثم اتجه إلى السيدة أمينة قائلا : لقد أدهشنى اليوم أن أرى حوانيت المدينة مقفلة ، وأن أرى الناس فى الشوارع

جماعات يتهامسون كأنما حزبهم أمر ، أو حلت بهم كارثة .

– لقد توالت عليهم المظالم يا محمود ، وكانت قاصمة الظهر تلك الضربية الأخيرة التى لم تترك فقيراً ولم تُبق على غنى . فالذى رأيته اليوم مظهر من مظاهر سخطهم ، فإنهم إذا فدحهم ظلم أغلقوا متاجرهم والتجئوا إلى الأزهر يستغيثون برجاله .

– فهز محمود رأسه فى حزن وألم وقال : وبمن يستغيث رجال الأزهر يا ترى ؟

ثم أحس أن المجلس طال به ، فتحفز للانصراف ، وودعته خالته وذهبت معه زبيدة خطوتين أو ثلاثا ، فنظر إليها نظرة طويلة وقال :

– متى يا زبيدة ؟ فأسرع إلى نجدتها عذرها الذى خدعت به خالتها ، فمست كتفه فى رفق وقالت : حتى يخرج الفرنسيون يا محمود .

٧

ذهب محمود إلى سوق المغاربة غاضباً آسفاً ، يفكر فى هذا العذر الجديد الذى سدت به عليه زبيدة طريق الأمل ، وسأل عن الحاج محمد السوسى فأرشد إلى دكانه ، فرآه

مغلقاً ، ثم سأل عن داره فوصفت له ، فطرق بابها ففتحت له الخادم خائفة مرتابة ، فقد تكرر فى هذه الأيام تطفل الجند على المنازل . ولما سمعت لورا صوته كاد يجن جنونها ويضطرب ميزانها ، وشعرت بنار مشتعلة تدب فى أوصالها ، وودت لو أنها قطعت السلم بوثبة واحدة ، لتقع بين ذراعى حبيبها ، وتغمر وجهه بالقبل ، ولكنها كبحت جماحها جهد ما تستطيع ، واستنجدت بالطبيعة الإنجليزية الرزينة ، وقالت دون أن ينم صوتها عن شىء : أبى ! إنى أسمع صوت محمود العسال بالسلم . فنهض نيكلسون فرحاً وصاح : أهلا بولدى ، أية ريح سعيدة طوحت بك إلينا ؟ لن أحس بعد اليوم ألم الغربة والنوى . ثم عانقه طويلا وشد على يديه فى محبة وشوق ، وتقدمت إليه لورا تتكلف الابتسام وتجاهد عينيها ألا تهتكا لها ستراً ، وقالت فى تلعثم : مرحباً يا محمود ، إنك صورة من رشيد التى أحبها ، فاليوم أراها كما هى ولا أشعر بلوعة نحو أهلها . ثم جلسوا إلى القهوة بعد أن أعدتها لورا ، وبدأ نيكلسون الحديث فقال : كيف حال الفرنسيين فى رشيد ؟ فأجاب محمود وقد زاد سخطه عليهم وعزم على أن يبذل نفسه فى مقاومتهم ، بعد أن سمع من زبيدة اليوم أنهم الحائل بينه وبين التزوج بها : لقد أرسلوا إلينا بحاكم مضطرب الرأى ، يلين مرة حتى تظنه ماء زلالا ،

ويقسو أخرى حتى تحسبه نار الجحيم . لم يف بوعد واحد من تلك الوعود التي ملأ بها خطبه وأحاديثه ، والرشيديون في جمهرتهم لا يثقون به ولا يلقون إليه بقياد ، وهم كتلة مخيفة من العصيان والتمرد ، فقد ضرب على الأهلين ضريبة فادحة ، قوبلت بثورة صاخبة وعصيان جامح ، ولولا هذه المدافع الجديدة ما استقر لهؤلاء الغزاة أمر . وفي مساء يوم رأى أحد العلماء الذين قدموا مع الحملة – ويسمونه دينون – من برج أبي منظور العمارة الإنجليزية وهي تهجم على العمارة الفرنسية بأبي قير ، وتصليها ناراً حامية ، وسمع أهل المدينة الضرب عنيفاً متواصلا ، وطارت إليهم الأخبار بأن الإنجليز دمروا جميع سفن الفرنسيين ، فوثبوا من الفرح ، وطاشت عقولهم ، ومشوا في جماعات يصيحون ويهللون ويكبرون ولم يستطع مينو أن يعمل شيئاً فأغضى إغضاء الذئب الضغن الحقود .

– حقًّا إنه كان نصراً مبيناً يا محمود ، فإن هذه الموقعة ستسد الطريق بين نابليون وبلاده ، وستقضي على آماله في ضرب إنجلترا بالهند وإنشاء دولة شرقية فرنسية . وستشد من عضد الممالك الضعيفة بأوربا وتدفعها إلى محاربة فرنسا وتحديها .

– لله الحمد والشكر . ثم قام أهل رشيد بثورة عنيفة ،

حينما وصلت السفينة التى تحمل السيد محمد كريم مصفداً ليشنق بالقاهرة .

ـ إن هذا السيد بطل من أبطال التاريخ يا محمود ، وكل جريمته عند الفرنسيين أنه جاهد فى سبيل وطنه ، وكتب سرًّا إلى مراد بك يدعوه إلى صدهم ومحاربتهم . ولقد علمت أنه لقى الموت شهماً كريما ، وأن الفرنسيين راودوه على أن يفتدى نفسه بثلاثين ألف ريال ، فأبى فى ازدراء وشمم ، وأجاب فانتور كبير تراجمة الحملة وهو يلح عليه فى قبول الفدية ، ويلحف : « إذا كان مقدراً على أن أموت فلن يعصمنى من الموت مال . وإذا كان فى الكتاب أن أعيش كان بذل المال عبثاً » ثم ضرب بالرصاص فى ميدان الرميله فلقى ربه شهيداً . فلمعت عينا محمود وقال . إن البطولة لن تموت ، وهذا معنى قوله تعالى : « ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

ـ هذا صحيح يا محمود ؛ أعندكم هذا فى كتابكم ؟

ـ نعم ، وكم فى القرآن من أدب وتشريع وحكمة وهداية .

ثم إن الذى يزيد فى سرورى ويبعث فى نفسى نشوة الأمل ، أن مينو قلق به مكانه فى رشيد وأحسّ بالحرج ، فقد قبض أحد العربان على رسول له إلى كليبر حاكم الإسكندرية ، فرأى معه رسالة ترجمها لنا أورلندو ، يلح فيها على كليبر فى

إمداده بالرجال ، لأن حاميته لا تزيد على أربعمائة رجل ، ويخبره أن العرب يزعجونه ليلا ونهاراً ، وأن الأهلين يثورون عليه لأقل سبب ، وأنهم استخفوا بسلطة الفرنسيين بعد نكبة أسطولهم . ثم يقول : لقد تحرّج مقامى هنا ، فإننى ما جئت من فرنسا لأدفن فى هذه المدينة ،أو لأقوم فيها بجمع الضرائب .

ــ سمعنا أنه أحرق قرية السالمية .

ــ نعم ، فقد قتل بعض رجالها ثمانية من جنده ، فأمر بقتل كل من يحمل السلاح فيها ، وصادر جميع ما بها من الماشية ، ثم أضرم النيران فى القرية .

ــ هذا أمر له ما بعده يا بنىّ، وسيف الظلم مفلول دائماً . هلم لنشهد اليوم اجتماع الناس بالأزهر . فقد أخبرنى الشيخ إسماعيل البراوى أن مرجل الثورة يغلى بالقاهرة، من أجل هذه الضريبة الجديدة الفادحة ، التى ستأتى على كل ما بقى عند الناس من صامت وناطق .

ثم سارا صوب الجامع الأزهر فسمعا المؤذنين وهم يؤذنون لصلاة الظهر ، ويتبعون أذانهم بدعوة ملتهبة إلى الثورة والجهاد، فدخلا المسجد فإذا هو يدوّى بما فيه من الحشد العظيم ، وقد ارتفعت أصوات الغضب ، وبسرت الوجوه ، وأخذ كل شخص يتكلم ويسمع فى آن ، وجلس إلى جانب

القبلة الشيخ السادات ، والمشايخ : يوسف المصيلحى ، وإسماعيل البراوى ، وعبد الوهاب الشبراوى ، وسليمان الجوسقى ، وأحمد الشرقاوى ، وهم مساعير الثورة ومؤججوها . ثم وقف الشيخ يوسف المصيلحى ، وكان ذرب اللسان ملتهب الوطنية قوى التاثير ، فقال :

« يظن الفرنسيون أن مصر أقفرت من الرجال ، وانحلت فيها العزائم وكلت الهمم ، وأنها شعب من نساء لا يميز فيه الرجل من المرأة إلا عمامة ولحية ، وأن أهلها قطيع من الغنم نام عنه رعاته ، وتركوه نهباً للذئاب . وهم يتندرون فى مجالس مجونهم وعلى كئوس شرابهم ، بجبن المصرى وهلعه من السيف والمدفع ، وأنه إذا رأى جندياً فرنسياً فى الطريق أقعى له فى ذلة وخنوع كما يقعى الكلب . فهل هذا صحيح ؟ » .

فهزت أصوات جوانب المسجد صائحة فى غيظ وغضب :

ــ كلا . كلا .

ــ نعم . كلا ، وكذب ما يظنون ، فإننى أرى فى هذه الوجوه غضبة الأسود لعرينها ، وحمية الشجاع الباسل لعرضه ودينه . أنتم أبناء الفاتحين ، ولأجدادكم سجل من المجد والجهاد لا ينقصه إلا أن تنقشوا تحته أسماءكم بسلاحكم . فهلموا إلى المجد والشرف هلموا ، هلموا إلى الجنة والشهادة هلموا . فلا نامت أعين الجبناء ، ولا هدأت قلوب المعوقين

والمنافقين ! لقد طال بكم أمد الصبر فماذا بقى لكم أن تصبروا عليه ؟ لقد ألزموكم حمل شارة الفرنسيس ، وافتنوا فى فرض الضرائب ، وهدموا أبواب الحارات حتى لا يعوقهم عن الهجوم عليكم فى ظلمة الليل عائق . هل نحن أمه محمدية ؟ هل نحن أمة جعل الله الجهاد فى مقدمة فروضها ؟ أيها الشجعان البسلاء : ثوروا لكرامتكم ، ثوروا لوطنكم ، ثم ثوروا لتاريخكم » ؛ وهنا انفجرت حماسة محمود العسال ونفدت طاقته العصبية فصاح : كفى كفى بالله عليك يامولانا ، فلن ترى منا مصر بعد اليوم إلا رجالا أرواحهم فى أسنة رماحهم . ثم اتجه إلى الناس ونادى : هلموا معى إلى الجهاد . فرددت الجموع الزاخرة صوته : إلى الجهاد ! إلى الجهاد ! وتزاحموا إلى أبواب الجامع يتقدمهم محمود ووراءه نيكلسون ، وما كان يشك من رأى الأمواج المتدفقة من الناس ، فى أن أيام الفرنسيين بمصر أصبحت تعد على أصابع اليدين .

اشتعلت الثورة بالقاهرة وتقدم محمود الثوار ، فأخذوا سمتهم إلى مخافر الجنود الفرنسية فقضوا عليهم ، وازدحمت بالناس شوارع الموسكى والغورية والنحاسين وغيرها ، وجاء الجنرال « ديبوى » حاكم القاهرة ليصد الثوار مع طائفة من فرسانه ، فأطبقوا عليه ، وأصابه أحدهم بطعنة من رمحه فخر صريعاً مجدلا ، فزادت بذلك حميتهم ، وتكاثر عددهم

بمن انضم إليهم من أرباض القاهرة ، واستولوا على المواقع الحصينة : كباب الفتوح ، وباب النصر ، والبرقية . وباب زويلة ، وباب الشعرية ، وأخذوا يحفرون الخنادق وينشئون الحصون ، ويطلقون منها النار على الفرنسيين .

وأدرك الفرنسيون الخطر المحدق بهم ، فجمعوا جموعهم وعزموا على استئصال الثورة بالحديد والنار . وقضى أهل القاهرة الليل فى تأهب وإصرار ، وكان محمود يمر على من بالخنادق والمتارس حافزاً للعزائم ، مثيراً للهمم ، حتى إذا بزغت شمس اليوم الثانى كان الفرنسيون قد احتلوا جميع المرتفعات خارج المدينة ، ونقلوا إليها مدافعهم وذخيرتهم ، فأرسلوا منها القذائف متتالية مرهبة على نواحى الأزهر والصنادقية ، والغورية ، والفحامين ، حتى أوشك الأزهر أن يتداعى من شدة الضرب وأن يسقط على الجماهير الحاشدة به . وصارت الأحياء المجاورة صورة من الخراب والدمار . فتهدمت البيوت ، ومات تحت أنقاضها آلاف من السكان البائسين ، وطال الهول واشتد وعجز الإيمان الأعزل أن يقف أمام الطغيان المسلح ، فسُقط فى أيدى المصريين ودارت عليهم الدائرة ، واستشفعوا بالمشايخ عند نابليون أن يرفع عنهم سخطه وغضبه ، ولكنه بعد أن أسكت عنهم أصوات المدافع أطلق جنوده تعيث فى القاهرة

كما تشاء ، وتتحكم فى الناس كما تشاء ، فدخلوا الأزهر بخيولهم وعبثوا بما فيه من كتب وخزائن .

إن نابليون كسب المعركة وقضى على الثورة ، ولكنه قضى معها على كل أمل له فى اجتذاب المصريين ، وعلى كل عاطفة تنبض بها قلوبهم .

وخرج محمود من الثورة كالسيف المحطم ، تحطم جسمه ، وتحطمت روحه ، وتحطمت آماله . فأسرع إلى بيت ابن عمه يائساً حزيناً ، وانطلقت شياطين الجواسيس من عقالها تقبض على كل من كان له ضلع فى الثورة ، واعتنقت آلة الإعدام كل من حامت حوله شبهة فقضت عليه ، ومل الفرنسيون تكلفهم المودة للمصريين فصارحوهم العداء ومشوا لهم الضراء ، وعرف المصريون بعد هذه الكارثة أن الخطب والمؤامرات شىء ، والسيف والمدفع شىء آخر .

وذهب نيكلسون إلى بيته يحمل لابنته لورا حوادث الثورة ، وما رآه من جرأة محمود وبطولته ، وقذفه بنفسه بين براثن الموت ، ثم زفر وقال : لقد كان بطلا حقاً ، ولكن ماذا تفعل العصا أمام السيف الحسام ؟

ــ لقد كنت أتوجس خيفة عليكما ، وكلما سقطت القذائف من القلعة وقمم المقطم ، كنت أدخل تحت السرير فأسجد وأصلى لكما . أهو بخير يا أبى ؟

ــ بخير وعافية ، ولكن شعوره بالهزيمة يكاد يقضى عليه .

ــ هذه طبيعة الشرقيين ، فمتى يعرفون أن الهزيمة دائماً أول حافز إلى الظفر ؟ أتصدق يا أبى أنى مسرورة بنتائج هذه الثورة ، إنها لم تنجح فى مرآى العين ، ولكنى أعتقد أنها بلغت غاية النجاح ، وأن الفرنسيين لن يتم لهم أمر بعدها فى مصر . لأنك إذا وضعت هذه الثورة إلى جانب تحطيم نلسون لأسطولهم ، رأيتهم فى مصر كأنهم فى بيت يحترق ، وقد حرموا كل وسائل النجاة .

وتوالت الأيام ، وخرج محمود من مخبئه ، وأكثر من زيارة نيكلسون ، ورأى من لورا عطفاً سحرياً شفى مريض نفسه ، وبعث فيها أملا جديداً . فحديثها حلو ، وخلقها كريم ، ومعدنها ذهب نضار . ثم هو إذا رفع إليها عينيه رأى الجمال الهادئ المطمئن ، الذى لم يحاول مرة أن يكون جميلا فبز كل صنوف الجمال . كان ينصت إليها فيسمع أدباً وحكمة ، ويتعلم كثيراً عن الدنيا وأحوالها ، والدول وسياساتها . وكانت تنظر إليه نظرة حنانة حالمة ، فتلتقى بها نظرته فيحس بأريحية يكاد ينتفض لها جسمه . سمه ميلا ، أو سمه حباً أخوياً ، أو سمه ما شئت فإنه شىء لذيذ وكفى . أكثر محمود من زيارة لورا واصطحبها لزيارة زبيدة كثيراً ، وكانت زبيدة تسر بلورا وتأنس بها ، حتى لقد

كانت تلزمها البقاء معها ببيت خالتها أياماً .

وفى صبيحة يوم قدم السيد على الحمامى من رشيد ، وأخبر زبيدة بأن أمها فى شوق إليها ، وأنها مريضة منذ حين ، وأنها ألحت عليه أن يسافر إلى القاهرة ليعود بها ، فلم تجد زبيدة بداً من السفر ، فنزلت فى سفينة إلى رشيد ، فودعها محمود العسال ولورا بين الزفرات والتنهدات ، ومال محمود على أذنها ، فأجابته فى ضحكة متكلفة : لم يبق إلا القليل !

٨

جلس مينو فى صدر إيوان بيته فى رشيد تحفه تلك العظمة الحبيبة إلى نفسه ، والأبهة التى تميل إليها غرائزه ، والجنود والديدبانات الفرنسية تحيط بأسوار الدار شاكى السلاح ، فى أزهى ملابسهم وأروع ما به يظهرون ، والخدم والأغوات يذهبون ويجيئون فى اهتمام وخشية ، يدلان على جلالة شأو المخدوم وشدة صرامته ، واحتفاله بصغائر الأمور .

وكان فى مجلسه ذلك اليوم الجنرال « مارمون » و « دينون » الأديب الكاتب الفرنسى ، و « دولوميو » الرسام ، وهما من أعضاء لجنة العلوم والفنون ، والطبيب « شوفور » .

بدأ مينو الحديث فى شىء من التضجر والسأم عما يحيط برشيد من الثورات التى لا ينطفئ أوارها ، ثم هز كتفيه وقال : عجيب أمر هذه الثورات، إنها مع حقارتها وهوان خطرها ، تشغل منا وقتاً كان أولى بنا أن نصرفه فى عظائم الأمور .

فهز « مارمون » رأسه وقال : إننا نكاد نكون قد أخطأنا الطريق فى سياسة هؤلاء المصريين ، وقد كان عدد الجنود الذين فتحنا بهم مصر يمكن أن يكفى ، لو أن الطريق بيننا وبين فرنسا بقيت مفتوحة آمنة . أما الآن ، فقد اضطررنا إلى تشتيت هذه القوة الصغيرة فى الصعيد لمحاربة مراد بك ، ثم فى جميع أنحاء مصر السفلى ، لأن الثورات لا تكاد تنقطع فيها ، وبذلك تمزق الجيش وقتل من الجنود عدد عظيم . وهنا قال دينون :

ــ ومن العجيب أن يترك نابليون هذا الأتون الملتهب بالثورة والعصيان ، ويقتطع من هذا الجيش الضئيل ثلاثة عشر ألف جندى مع كبار قوادهم ، ليذهب لغزو سورية؛ كأن مصر قد استقر بها كل شىء ، واستقام بها كل أمر . فنظر مينو إلى دينون نظرة المغضب وقال :

ــ أنت لا تعرف نابليون . إن سر عبقريته إنما هو فى تحدى الأقدار والسخرية من الكوارث . إنه ليس

رجلا مثلك أيها الفنان الأديب . إن العقول تستطيع أن تعلل الأشياء فى مدى محدود ، أما أعمال العباقرة ففوق منال العقول .
وهنا أطرق مارمون وقال :

ـ إن المقامر قد يلقى بما بقى له من مال ليكسب الدست !
فقال مينو :

ـ لا يا مارمون . إن المقامر ليست له بصيرة نابليون التى تكشف الغيب ، ثم إنكم تبالغون فى شأن هذه الثورات ، ولو كنت على رأس خمسمائة جندى لأطفأتها جميعاً . ولكن هذه الدنيا تعطى السيف دائماً لصاحب المحراث ؛ ثم زفر وقال : عجيب ألا يختارنى نابليون وكيلا له بالقاهرة بدل « دوجا » ، ولكن يظهر أن حماية الثغر أهم وأعظم . فأجاب دولوميو : من غير شك .

ثم انصرف القوم عدا الطبيب شوفور ، وبقى مينو مطرقاً ، فقال شوفور :

ـ إن سيدى يكثر التفكير ويبدو عليه القلق ، وقد لحظت منذ أيام أن صحته ليست على ما أحب له . فرفع مينو رأسه وقال :

ـ إنى أعيش هنا يا شوفور عيشة الأسير ، وهذا الجو المحدود أضيق من أن يتسع لآمالى ، وكلما أطلت التفكير فى أمرى برح بى الحزن واشتملنى عارض

يشبه الجبال . إننى خلقت للعظمة والمرح . أما العظمة : فقد لقيتها هنا فى صورة ضئيلة لا تكاد تتعدى حدود رشيد ، ولو أننى ملكت فرنسا كلها ما قنعت بها نفسى . وأما المرح : فقد تركت ورائى منه فى باريس ما لا يمكن أن يعود .

— لا بد للنفس الكبيرة والعقل الدائب المفكر من المرح واللهو . ولو لم يغسل عبث الليل ولهوه آلام كدح النهار وكده ، لتبلد العقل وقتله الإعياء .

— وأين منا السبيل إلى اللهو فى مدينة نصفها مساجد ، ولأهلها عيشة الرهبان والراهبات فى الصوامع ؟

— السبيل الزواج يا مولاى .

— الزواج ؟ وهل لرجل مثلى من أعرق الأسر الشريفة بفرنسا ، أن يتزوج بفتاة إفريقية شوهاء ، ليس لها قدم فى المجد ، ولا لآبائها ذكر فى التاريخ ؟ !

— أما الفتاة الإفريقية الشوهاء فلا وجود لها فى رشيد ، إن بهذه الدور التى يمر بها مولاى فوق جواده ، لآلئ بشرية لم تقذف بمثلها كنوز البحار .

أنا طبيب يا سيدى وتقتضينى صناعتى أن أرى الوجوه ، وقد رأيت من حسنها هنا ما زهدنى فيما بالغ فيه الشعراء وأبدع فيه المثالون . وأما الشرف : فإن فى رشيد منه ما فى

فرنسا . إن الشرف هنا لا يكون بالانتماء إلى بطل ، وإنما يكون باتصال النسب بالنبي الكريم ، وهذا خير ضروب الشرف والنبل .

ــ فى رشيد من الأسر من ينتمى إلى النبى محمد ؟

ــ كثير جداً ، لأن أهلها من قريش نزحوا إلى رشيد بعد فتح العرب بقليل ، ولكننا نريد شيئين : الشرف ، والجمال . وهذان لا يجتمعان فى رأيى إلا فى أسرتين : أسرة الشيخ الجارم ، وأسرة السيد محمد البواب ، فاتجه إليه مينو فى شغف وقد أعجبه الحديث وقال :حدثنى عنهما يا شوفور ، حدثنى . .

ــ أما رقية وآمنة بنتا الشيخ إبراهيم الجارم : فجمالها فوق وصف الواصف . وأما زبيدة بنت السيد محمد البواب فإنها فى الحق ساحرة فاتنة .

فجحظت عينا مينو وقال : هذا بديع جداً ، ولكن ماذا أفعل بخليلاتى اللاتى يخطئهن العد بفرنسا وإيطاليا . إن أظافرهن لن تقنع بتمزيق جلدى !

ــ وأين هن منك اليوم وبينك وبينهن المهامه الفيح والبحار الخضر ؟ إن الفرنسيين سيؤسسون بمصر مملكة شرقية واسعة الأطراف ، وسيكون لك فيها الشأن الأول والملك العظيم .

ــ هذا ماتحدثنى به نفسى ، وإذاً لا بد من الزواج ،

وبمن أتزوج ؟ سأختار بنت الشيخ الجارم ، لأنه فوق شرفه النبوى من أكبر علماء المدينة .

ــ غير أن فى الأمر عقبة يجب أن تذلل ، تلك أن الإسلام يحظر تزوج المسيحى بمسلمة .

ــ ألست مسلماً ؟ ألم يشهدنى أهل رشيد فى مسجد المحلى وأنا أقوم وأقعد حتى كدت ألهث من التعب فى صلاة التراويح ؟

ــ أظن أن هذا لا يكفى ، فإن عقد الزواج فى مثل هذه الحال يجب أن تسبقه وثيقة مسجلة بالإسلام ، على أننا نستطيع أن نسأل مفتى المدينة فى هذا الأمر .

فوثب مينو يصفق بيديه يدعو مملوكه الخاص « إينال » ، فلما مثل بين يديه ، أمره أن يدعو إليه الشيخ أحمد الخضرى . حضر الشيخ الخضرى بعد قليل ، وهو خائف يرتعد لهذه الدعوة التى فاجأته فى جوف الليل ، وأخذت شفتاه تتمتمان بالأدعية وضروب الاستغاثة بالأنبياء والصالحين ، فسلم على الجنرال ، وجلس بعد أن جمع ثيابه وتكور فى عباءته كأنه صوان ضخم للثياب ، وبعد أن هدأت نفسه قليلا اتجه إليه مينو سائلا :

ــ ما قول مولانا المفتى فى مسيحى أسلم ، أيجوز أن يتزوج بمسلمة ؟

ــ نعم يجوز شرعاً إذا ثبت إسلامه لدى مسجل العقود

بالطرق الشرعية .

ـ وما الطرق الشرعية ؟

ـ الإقرار والبينة . وأقوم السبل أن يقدم هذا الرجل إلى المسجل وثيقة شرعية بإسلامه .

ـ إننا فى فرنسا لا نتشدد هذا التشدد ، فالناس أحرار فى عقائدهم وتصرفاتهم .

ـ إن الإسلام أيها الجنرال يدعو إلى الحرية ، ولكنه يحيطها بسياج حتى لا يضر بعض الناس بعضاً بتصرفاتهم ، والله جل شأنه يقول فى كتابه الكريم : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

ـ هذه حكمة يجب أن تكون أساساً لجميع القوانين . لقد أفدتنا كثيراً يا مولانا ، وقد دعوتك لأن جدلا قام بينى وبين شوفور فيما سألتك عنه . يا إينال مُر بعض الجند أن يكون فى خدمة الشيخ حتى يصل إلى داره .

مضى بعد ذلك يومان قضاهما مينو فى التفكير وتقليب وجوه الرأى ، وذهب فى أثنائهما الشيخ الخضرى إلى الشيخ إبراهيم الجارم ليقضى السهرة بداره على عادته ، وجاء ذكر الفرنسيين وأعاجيب أفعالهم ، كما كان يجىء فى كل ليلة ، فقال الشيخ الخضرى :

ـ دعانى الجنرال ليلة أمس بعد أن ذهبت إلى فراشى ،

فلما كنت عنده سألنى سؤالا عجيباً ، فقال الشيخ الجارم :
— عن أى شىء سألك ؟
— سألنى عن صحة زواج المسيحى الذى أعلن إسلامه بمسلمة .
فأحس الشيخ الجارم — وكان بعيد النظر نافذ البصيرة — أن وراء هذا السؤال داهية دهماء ، توشك أن تسقط على المدينة ، ودفعته غريزة الحذر أن يكتم عن الشيخ اهتمامه فقال : إن هذا الرجل أخطأته عمامة الفلاسفة ، وقد خرف القدر فسماه جنرالا ، ولعل اهتمامه بسؤالك عن الزواج وغيره خطرات من وساوسه التى لا يفيق منها .
وانقضت السهرة وودع الشيخ ضيفه ، وجلس واجماً وقد حمل رأسه براحتيه ، وتواردت عليه الأفكار والهواجس ، وأخذ يحدث نفسه : هذا المينو يريد أن يتزوج ، ما فى ذلك من شك ، ثم هو يريد أن يتزوج بمسلمة ، وهذا بديهى أيضاً . وما شأنى أنا بهذا ؟ فليتزوج فلن أستطيع دفعه ؛ ولكنها مصيبة ستحل بأسرة فى رشيد ، وبأى الأسر تنزل ؟ بأكبر الأسر وأرفعهن شأناً ، لقد قرب الخطر منى ، وأخذت النار تمتد إلى ثيابى . إن لى بنتين ، فياللكارثة ! كيف أدفع هذا العار عنى ، إن كلمة « لا » أصبحت فى عرف الفرنسيين لا تفيد النفى ، وإذا استطاع شجاع أن يقولها فلن تكون نهايته إلا الذل والدمار . إن هذا الجنرال سيظن

أن زواجه بأكرم بنت فى المدينة تنزل منه وتواضع ، وشرف عظيم وتفضل واسع على من يصاهره . فالويل كل الويل لمن يرد هذا الشرف المزعوم فى وجهه ، أو تبدو منه أية رغبة عن هذا الفضل العظيم ! أليس من مفر ؟ أليس من حيلة ؟ ليتنى زوجتهما منذ حين ، وليتنى لم أذد عنهما الخطاب كما يذود حارس البستان الطيور عن ثمره ! إننى واثق أن إسلام الجنرال رياء ، ولو كان مسلماً حقًّا ، وأخلاقه أخلاقه التى أعرفها ، ما رضيته زوجاً لأية فتاة تتصل بى من بعد أو من قرب . لا . لا . لا . لا إن هذا لن يكون .

ثم رفع رأسه وبدا فى عينه بريق الظفر ، وهدأت نفسه هدوء من يهتدى إلى حل أمر عسير ، فنادى بخادمه وقال :

ـ اذهب الآن مسرعاً وادع إلىّ الشيخ عثمان شبايك ، والشيخ حسيناً أبا السعود ، أتعرفهما ؟ إنهما الطالبان اللذان يجيئان هنا فى عصر كل يوم لتلقّى الدروس . واذهب بعد أن تدعوهما إلى بيت الشيخ محمد غرا ، واطلب منه أن يعجل إلى .

وأقبل الطالبان بعد قليل فحياهما الشيخ وقال : إنما دعوتكما فى هذه الساعة لأعرض عليكما زواج بنتىّ ، فقد أدركنى الهرم وخشيت إن أنا مت أن يزوجهما أخوهما من غير العلماء . وقد تعجبان من هذا العرض المفاجئ ،

ولكن لو علمتما ما أحاط بى من الوساوس والهموم لزال عجبكما . فنظر الطالبان إليه فى ذهول . وقال أولهما : هذا شرف كبير يا مولانا يطير اللب ويثير العجب ، وإنما نحن خادماك اللذان يتنافسان فى حمل نعليك ، فإذا تفضلت علينا بهذه الكرامة ، فليس لنا إلا أن نشعر بأن ما أصبناه من خير إنما هو بركة من بركاتك ، ونفحة من نفحاتك . ثم انقضا على يديه لثما وتقبيلا وهنا دخل الشيخ محمد غرا ، فطلب منه الشيخ أن يدوّن عقدى زواج ، لأنه زوّج الشيخ شبايك برقية بنته ، والشيخ أبا السعود بآمنة . فانزعج الشيخ غرا وشرع يتلعثم ، ولكن الشيخ صوب إليه عينين غاضبتين ، فاستل قلمه وكتب .

وفى بكرة النهار أقبل أعوان مينو يتواثبون إلى دار الشيخ الجارم حتى ملئوا رحبتها ، وهم يتعجلونه إلى مقابلة الجنرال ، فخلل الشيخ لحيته بأصابعه — وقد كانت تلك عادته إذا أحس بظفر أو كتم شماتة فى عدو — ثم وجد نفسه وهو ينشد :

فأصبحت من ليلى الغداة كقابض
على الماء خانته فروج الأصابع !

وركب الشيخ بغلته وسار معهم وهو يردد فى همس خافت استغاثته التى أغرم بترديدها :

نحن بالله عزنا والحبيب المقرب
بهما عز نصرنا لا بجاه ومنصب
والذى رام ذلنا من قريب وأجنبي
سيفنا فيه قولنا حسبنا الله والنبى

حتى إذا كان بحضرة مينو فجاءه الجنرال بمحاضرة طويلة الذيول عدد فيها أجداده الأبطال ، وما كان لهم من أثر مجيد فى تاريخ فرنسا . وأطال فى إطراء شرف محتده ونبل أعراقه ، والشيخ مطرق يخلل لحيته بأصابعه ، ولسانه لا يفتر عن قراءة القرآن . ثم انتقل مينو إلى غايته فقال : وقد أردت ألا أضن على هذا البلد بما يصلنى بأهله ، فعزمت على إعلان إسلامى والإصهار إلى أسرة شريفة ، يتصل نسبها بالسلالة النبوية . وعلمت أن لك بنتين فلم أجد علىّ من عار إذا تزوجت بكبراهما . إن الناس سيدهشون حقاً لهذه المصاهرة ، ولكنهم لو علموا أن التواضع من أول صفات الجنرال مينو ما عجبوا . فرفع الشيخ رأسه وقال :

ــ هذا ياسيدى شرف عظيم . ولو كنت أعلم ذلك الحظ السعيد الذى ينتظرنى ما زوجت ابنتىّ بالأمس .

ــ هذا شىء يؤسف له فقد كنت أرضى أن تكون لى صهراً .

ــ ذلك تقدير العزيز العليم .

وهنا وقف مينو وفى وجهه دلائل الحقد والغضب ، فوقف

الشيخ وسلم وانصرف .

ولم يستقر مينو فى مجلسه حتى أرسل فى طلب السيد محمد البواب ، والسيد على الحمامى ، فلما دخلا عليه دهمهما بطلب الزواج بزبيدة ، فكاد البواب يصعق لهول ما ألقى عليه ، وراعه الموقف وأصماه سهم القضاء . وأخذ الحمامى يسهب فيما سينالهم من الشرف والجاه بهذه المصاهرة ، فأفاق البواب وقد سمع نفسه وهو يقول فى خوف وتلعثم : إنى كنت أتمنى أن أنال هذا الشرف لولا . . . ولكن الحمامى أسرع فقال فى صوت مرتفع حجب كل صوت : إننا ياسيدى الجنرال طوع أمرك ، وإن نزولك إلى مصاهرتنا واختصاصنا بهذه الكرامة دون غيرنا ، فضل دونه كل فضل ، وكرامة ليس بعدها كرامة . وهنا هز مينو رأسه فى كبر وأنفه وقال : سيكون الزواج بعد أسبوع ، فقال الحمامى إنها الآن بالقاهرة ، وسأسرع غداً إليها ، وفى يوم حضورها يتم الزواج .

خرج الرجلان من دار مينو ، فقال السيد محمد البواب للحمامى فى ذهول :

ــ لقد قتلتنى يا رجل وجلبت علىّ عار الأبد .

ــ إن هذا الزواج سيرفع من شأنك ويجعلك سيد المدينة .

ــ إنى لن أشترى سيادة الدنيا بهذه الوصمة .

ـ هون عليك يا عم ، فلن يضيرك أن تكون صهر أكبر جنرال فرنسى ، ولن تلبث حتى يتزاحم عليك وفود المهنئين من كل مكان .

ـ لن أبقى فى المدينة حتى أرى واحداً منهم !

ـ سألتك بالله أن تتريث يا عم ، فإن الوهم يلعب برأسك، ويصور لك من حادث يتمناه الناس جميعاً خطباً فادحاً .

ـ لن أبقى برشيد لأرى الناس يراءوننى ، ولو كشف عنهم الغطاء لبدت قلوبهم وكلها زراية بى واحتقار وسخرية . ماذا تظننى يا رجل ؟

إننى لن أعيش فى مدينة كل ما فيها ومن فيها يذكرنى بأن ابنتى فى عصمة إفرنجى مغتصب .

ـ ولكنك ستقتل أمى .

ـ إن الموت قد يكون أحياناً خيراً من الحياة .

ـ يا للمصيبة ! وماذا نعمل الآن ؟

ـ ماطل الرجل إن استطعت ومنّه الأمانى ، فلعل الله يعقب بعد عسر يسراً .

ـ لن أستطيع يا عمى . إننى إن فعلت فتك بنا جميعاً وصادر أموالنا ، فإنه إذا تملكه الغضب انقلب أسداً هصوراً .

ـ الله أقوى منه . سأرحل الآن حيث لا يعلم أحد مكانى ، وقد أعددت العدة للسفر قبل أن أذهب لمقابلة الرجل ،

فإنى أوجست منه شرًّا . ثم انفلت هائماً نحو غرب المدينة ، فاكترى بغلا سار به فى طريق الإسكندرية ، منطلقاً فى عجلة كأنه الصيد المذعور .

وسار الحمامى إلى أمه حزيناً ، ولكنه ما زال بنفسه فى الطريق حتى مسح عنها الحزن ، وصوّر لها ما يستقبله من الثروة والجاه ورفيع المنزلة فاطمأنت ، ثم طغى عليه سيل من الأمانى والأحلام فسخر من عمه ، وهزئ من تزمته وتحرجه ، واعتقد أنه رجل لا يفهم الحياة ولا يهتبل الفرص . وما دام الزواج شرعيًّا فأى شىء فيه من العار الذى يتخيله الأغبياء المتحذلقون؟!

دخل على أمه ضاحكا مرحاً ، وألقى إليها الخبر فى جذل وابتهاج ، وأخذ يسهب فى وصف الجنرال وكرم أخلاقه وشدة تمسكه بدينه ، وأن كرائم الأسر فى رشيد ستحسد أخته على هذا الشرف الباذخ ، الذى طالما ترامت على أعتابه فلم تظفر منه بطائل .

ـ وهل قبل أبوها ؟

ـ قبل مسروراً ، وسافر ليعد لزبيدة جهازاً يليق بالجنرال .

ـ أننى لا أعرف ما يعرفه الرجال ، ولكنى غير مسرورة لهذا الزواج ، لأنه زواج غير عادى ، ولا أظن أنه ينتهى بخير .

ـ دعى الأمر لله .

ـــ آمنت بالله لا رب سواه .

وأسرع الحمامى إلى القاهرة فى غد يومه ، واحتال لأخذ زبيدة ، فادعى أن أمها مريضة . ثم مضت أيام وصلت بعدها إلى رشيد ، وكانت أمها مريضة حقًّا ، لأن غيبة زوجها أقلقت بالها وأقضت مضجعها ، وجعلتها تظن الظنون فدخلت عليها زبيدة فقبلتها باكية ، وحين سألت عن أبيها أخبرتها بأنه سافر منذ حين ، وسيعود قريباً . وحينما فجأها أخوها بخبر خطبتها تلقته ذاهلة أول الأمر ، وطاف بها خيال محمود وما له فى سويداء قلبها من حب مكين ، ثم طاف بها خيال العرافة رابحة ، وتنبهت فيها غرائز الطموح ، وقضت الليل كله تحمل ميزاناً من الوهم ، تضع مينو فى إحدى كفتيه ومحموداً فى الأخرى ، فمرة ترجح هذه ، ومرة ترجح تلك . وكانت تثب من سريرها وتقول : هذه هى الموقعة الفاصلة فى حياتى ، فأى الرجلين أختار ؟ مينو ليس الآن ملك مصر ولكنه قد يكون ، ومحمود أحب الناس إلى قلبى وأقربهم إلى نفسى . مينو إفرنجى يقولون : إنه أسلم ، ولكنى لا أعرف أخلاقه وصفاته ، وهو ليس من جنسى ولا من قبيلى ، ومحمود ترب صباى وشقيق روحى ، وفيه صفات الأبطال وخلائق سكان السماء ، ولكن ليس لديه ملك، وليس لديه عرش، وليس لديه صوبلجان . مسكين

يا محمود ، لو كنت ملكا ! ولكن مالى وللملك أسلك إليه طريقاً مظلمة موحشة مجهولة . لا . لن أتزوج بهذا الفرنسى ولو انطبقت السماء على الأرض . ولكن من يدرى فقد يكون هذا الرجل مطيّتى إلى ما أريد ؟ إن العرافة لم تكذب قط ، فلِمَ تكذب فى أمرى وحدى ؟

وهكذا ظلت زبيدة تخلط وتهذى حتى بزغ النهار ، وحينما ملأت الشمس الأفق غصت دار البواب بالزوار . وكان بينهم الحاج حسين الميقاتى ، والسيد على الحمامى ، والسيد أحمد النقرزان ، والسيد إبراهيم النقرزان ، فطلبوا من زبيدة توكيل الحاج حسين فى تزويجها بمينو ، فوكلته أمام الشهود فى تردد ووجل . وكان مينو أشهد على إسلامه قبل ذلك أمام القاضى الشرعى ، وسمى نفسه عبد الله جاك مينو ، واختار أن يكون الحاج أحمد شهاب وكيله فى الزواج فاجتمع الوكيلان والشهود والمفتون بالمحكمة فى اليوم الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف وعقد لعبد الله مينو على زبيدة ، وزفت المسكينة الطموح إلى مينو بعد أسبوع ، فقذفت بسفينة حياتها فى خضم قاتم مضطرب الأمواج ، لا يهديها فيه إلا شعاع من أمل متقطع كاذب ، ولو نفذ إلى سمعها صوت من بين هذه الأمواج الصاخبة حولها ، لسمعت قهقهة القدر وهى تجلجل فى شماتة وسخرية .

٩

بقى محمود العسال ونيكلسون بالقاهرة يرتقبان الحوادث ويتصلان بجماعات الثوار ، ويبتكران الوسائل للانتقاض على الفرنسيين وزعزعة حكمهم فى مصر ، وذهب محمود ذات صباح إلى متجره بخان الخليلى الذى يشرف عليه ابن عمه ، وبعد أن جلس قليلا رأى آثار الحزن والوجوم بادية فى وجه ابن عمه ، فحاول أن يتغافل عما بدا له لأن عبوس الوجوه وانقباضها ليس بالشىء الغريب فى هذا الزمن الغريب ، ولكن حسيناً زاد ارتباكه وانصرافه إلى الأمور التافهة وتجنبه النظر فى وجه محمود ، فابتدره قائلا : هل من جديد يا حسين ؟

ـ فتلعثم الفتى وحاول أن يبتسم فلم يستطع ، ثم نظر فى وجه محمود نظرة حزن وإشفاق وقال :

ـ إن سعداً الشباسى المراكبى جاء اليوم من رشيد .

ـ وماذا فى هذا ؟ أماتت أمى ؟

ـ لا قدر الله . إنه يقول إن سيدتى زينب بخير .

ـ هذا شىء يسر ، فلمَ أراك عابساً حزيناً ؟

ـ إن ما قص على من أعمال الفرنسيين برشيد أثار أحزانى .

ـ هذا شىء لا يقابل بالحزن ، وإنما يقابل بالجهاد

وجمع الكلمة وتوحيد الرأى .

— أخشى ألا نستطيع جمع الكلمة إلا بعد فوات الأوان ، وبعد أن تداس كل كرامة ، وإن الحسرة لتمزق فؤادى حينما أرى بعض الناس الذين تأبى الإنسانية أن ينسبوا إليها يساعدون الفرنسيين ويتملقونهم ويذللون لهم السبل .

— إنهم ليسوا بأكثر ملقاً واستخذاء من العلماء أعضاء مجلس الديوان الذين يحملهم الفرنسيون كل يوم على كتابة منشور مملوء بالآيات القرآنية لتأييد حكم الغاصب ودعوة الناس إلى طاعته . آه يا حسين ، إن مصر كانت مريضة بأهلها ، فلما جاء الفاتح لم يجد بها مناعة تصد الداء الوبيل الذى رماها به ، وماذا برشيد من أفانين مينو ؟

— علمت أن نزعته الجديدة أن يزج بنفسه فى الأسر الكريمة .

— كيف ؟ يكثر من زياراتها ؟

— يكثر من زياراتها أو يصهر فيها .

— ياللكارثة ! يتزوج بمسلمة شريفة ؟ إن دون هذا وتسيل الدماء ! من يقبل أن يزوجه ابنته ؟

— ليست المسألة مسألة قبول . إنما هى إلزام وقهر ، ومن يستطيع أن يقف فى وجهه ؟

— أتزوج فعلا ؟

— نعم .

ـ بمن ؟

فتنهد حسين وغلبه دمعه وقال : بزبيدة .

فوجم محمود وذهل ، وألقى برأسه بين راحتيه ، وترك عينيه شاخصتين كأنهما عينا المحتضر وقد جمد الدمع فيهما ، وتملكه حزن وغضب حبسا لسانه عن الكلام والأنين . بقى أكثر من نصف ساعة على هذه الحال ، ثم هب واقفاً وقال :

ـ ما أصابكم من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب . ثم قال : كنت أحارب الفرنسيين للوطن ، واليوم أحاربهم للوطن والشرف والانتقام . ثم انطلق مطرق الرأس كمن به جنة ، ولزم داره أياماً ليبث حزنه لنفسه ، ويرسل الدمع مدراراً دون أن يخاف رقيباً أو مليما .

غاب محمود فلم يزر نيكلسون أياماً ، فقلقت لورا ولعبت بظنونها الأوهام ، فقالت فى هيئة من عرض له أمر غير خطير غير أنه يريد أن يتحدث ، بينما كانت تملأ فنجانة القهوة لأبيها :

ـ هل سافر محمود إلى رشيد ؟

ـ ما أظن يا بنتى ، فإنه لو عزم على السفر لأخبرنى . إننى لم أره منذ أربعة أيام وقد شغلنى عنه انصرافى إلى استهواء ذلك الضابط الفرنسى حتى أصبحت جميع أخبار القيادة العليا ملك يمينى وفى متناول كفى .

ـ عجيب أن يبوح ضابط بهذه الأسرار . كيف استملته يا أبى ؟

ـ الجنود يا لورا ساخطون على البقاء فى هذه الديار ، وبخاصة بعد أن هددتهم الثورات وحوادث الاغتيال . وهم يعتقدون أن قدومهم إلى مصر لم يكن إلا لإشباع نزوة لنابليون المولع بأن يجلجل اسمه دائماً بين الطبول والزمور ، ولو أورد جنوده موارد التلف . ثم إنه ضللهم ودفعهم إلى الاعتقاد بأنهم سيجدون فى مصر باريس أخرى ، فلم يجدوا من ذلك شيئاً . عرفت هذا الضابط أول ما عرفته بحانة للإفرنج بحارة الرويعى ، فرأيت فيه فتى وسيم الطلعة ، يدل حديثه وملامحه على أنه من الطبقة المتوسطة بفرنسا ، وعلمت من خادم الحانة أنه مرافق (ياور) الجنرال دوجا الذى قام مقام نابليون بعد سفره إلى سورية . رأيته جالساً وقد خيم على وجهه الحزن والسأم ، فبدأت الحديث عن الجو، فابتسم نحوى فى وداعة وتأفف وقال :

ـ إن جو مصر خداع كنسائها ، فإنه يصفو لك يوماً ليذيقك عذاب الجحيم أياماً وشهوراً . آه يا شيخ ! لو ذقت حرارة الجو حينما قدمنا مصر واخترقنا هذه الصحراء الملعونة بين الإسكندرية ودمنهور . عند ذلك قربت من خوانه ، ومددت يدى إلى كرسى فجلست بجانبه ، ودعوت

الخادم أن يأتى بكوبين من الجعة . وطال بيننا الحديث فى جمال باريس وجمال نسائها ، وقبح القاهرة وقذارتها وانتشار الأمراض بها ، وجدبها من مسارح اللهو والتسلية ، وبغض سكانها للفرنسيين . وقد أعلمته فى غضون الحديث أنى مغربى وأنى مولع بالفرنسيين ، أحب فيهم الشهامة والشرف وخفة الروح ، وأعتقد أن ثورتهم التى قاموا بها فى بلادهم للحرية والإخاء ستخلد أمتهم على الدهر ، وستبقى مثلا عالياً فى العالمين . فقبض على يدى وهزها فى جذل ونشوة ، واقتنصت الفرصة وأخرجت خاتمى الثمين من إصبعى ، وقلت : هذا يا سيدى . . فعاجلنى وقال : ألبير . ألبير . فقلت : هذا يا سيدى ألبير سيكون رابطة الصداقة والمحبة بينك وبين صديقك السوسى . فالتقطه ألبير مبتهجاً وأخذ ينظر إليه دهشاً وقال : هذا لى ؟ قلت : نعم ياصديقى ، ولى من الثروة مالا يعدُّ هذا بجانبه شيئاً . ثم قمت بعد أن واعدنى على أن نلتقى عصر كل يوم بالحانة .

ــ وهل أخبرك بشىء يا أبى ؟

ــ أخبرنى أنه بعد أن سافر نابليون إلى سورية ظهر التمرد والانتقاض فى أكثر بلاد مصر السفلى ، لكثرة ما دهى الناس من عبث الجنود ومصادرتهم لماشيتهم وحاصلاتهم ، فشبت الثورة بالشرقية ثم سرت نيران العصيان متأججة

محيفة إلى ميت غمر ، والبلاد التى حولها ، ثم اشتد الهياج فى منطقة رشيد وظهر بالبحيرة رجل ادعى المهدية ودعا الناس إلى الجهاد ، وانضم إليه رجال القبائل وغيرهم ، وقد هزم الفرنسيين مرات حتى تكاثروا عليه آخر الأمر فقتلوه. وكان الفرنسيون إذا تغلبوا على مدينة فتكوا بمن فيها ودمروها .

— هذا منطق مقلوب يا أبى . إنّ قلوب الأمم لا تملك بالقسر والقسوة .

— إن هؤلاء القوم يظنون يا فتاتى أن السيف هو قانون أمم الشرق ، ولم يعلموا أن هذه الأمم هى التى علمت أوربا فى القرون الوسطى قوانين سياسة الأمم ، وأرسلت إليها شعاعاً وهاجاً من المدنية والعلم. وبينما هما يتجاذبان الحديث إذا طرق خفيف على الباب ، فقام نيكلسون يفتحه فرأى محموداً العسال فلم يملك إلا أن يعانقه مرحباً ، ثم صاح : لورا ! ها هو ذا محمود العسال الذى أقلق بالنا بغيابه طول هذه المدة ، فأسرعت لورا فرحة بلقاء محمود ، ومدت إليه يديها فى حب أخوى صادق ، وقالت :

— لا يا محمود . . . إن مثلثنا المتماسك إذا غابت منه ضلع عاد منكسراً ؛ ثم قالت فى مرح لطيف : وإهمالك زيارتنا ذنب لا يغتفر ، فلا بد أن تؤدى لنا حساباً دقيقاً عما كنت تفعل فى هذه الأيام . حياها محمود تحية ملؤها

الشكر ، وجلس واجماً ينكت الأرض بعصاه ، وهنا قال نيكلسون : مالى أراك اليوم منقبض الأسارير يا محمود ؟

ــ الخبر هائل وصل إلى من رشيد منذ أيام . ثم طفرت دمعتان من عينيه لم يستطع لهما حبساً ، وأخذ يصل الحديث ثم تمتم فى ذهول : علمت أن الجنرال مينو تزوج بزبيدة . سمعت لورا الخبر فدارت بها الغرفة كأنها ركبت فوق محور ، وماجت بنفسها إحساسات عنيفة مبهمة . فأحست بشىء من الفرح يمتزج بالحزن الأليم . تزوجت زبيدة حبيبة محمود فأصبح خالصاً لها ، لا يزاحمها فى حبه شريك . والأثرة أول صفات الحب ، لأنه دائماً غيور حذر مستأثر . وإذا يئس محمود من زبيدة تفتحت أمامه السبيل إلى حب آخر ، وقد رأت منه فى الأشهر القليلة الماضية ميلا كاد يكون حبًّا ، وحناناً جاوز حد الحنان ؛ تمر هذه الصور سريعة خاطفة بذهن لورا فتسر وتبتهج ، ولكن صوراً أخرى فى سرعتها ومضائها تدهمها قوية جياشة فتبتئس وتحزن . إن محموداً فى ألم شديد فكيف تسر وحبيبها يتألم ؟ إن بطلها قد خاب أمله ، وعبثت بعواطفه فتاة كانت تغذى حبه بوعود خلابة كاذبة . وإلافلماذا لم تتزوجه ، وهو زينة الفتيان وفخر أبناء الزمان ؟ ولكن من يدرى ؟ فقد تكون زبيدة المسكينة قد رُميت بهذه الداهية

على الرغم منها ، وقد يكون أهلها قد غلبوا على أمرهم فزوجوها بهذا الفرنسي مكرهين ، وهنا يجب أن تحزن لزبيدة أيضاً ، فهي صديقتها وأختها ، وقد كانت تحب محموداً حبًّا جمًّا ، فيالنكبة العاشقين ؛ ويالمصيبة الحبيبين ! لا لا . إنها لا تفرح لمصائب الآخرين ، فكيف بنكبات أصدقائها المخلصين ؟ هكذا كانت الأفكار تتزاحم على لورا . وهكذا كانت عواصف الوجدان تطوح بها من ناحية إلى أخرى . لذلك اتجهت إلى محمود وقالت : إنها لكارثة حقًّا ، مسكين يا محمود ! ولكن الرجال لا يبكون ، ومثلك من يحمل الأرزاء فخوراً باحتمالها . وقال نيكلسون وقد برّح به الهم : عجيب أن يصهر الفرنسيون من المصريين ، وخناجرهم فى جنوبهم . ولكننى أعتقد أن زبيدة أرغمت على هذا الزواج إرغاماً ، هون عليك يا بنىّ فإن هذه المصيبة سيمحوها ما هو أشد منها ما دمنا فى هذا الزمن الأغبر . ارفع رأسك يا بنى وكن رجلا . فقال محمود: نعم سأكون رجلا ، وسأعمل بوصاتك ووصاة لورا ، وسأثور على الفرنسيين لوطنى وشرفى . هلم يا نيكلسون فقد علمت أن نابليون سيعود اليوم من الشام وقد أقاموا له الزينات وأعدوا الطبول والزمور ، واعتقادى أنه هزم شر هزيمة على الرغم من منشورات الديوان ، ومن تلك الرايات التى رفعوها على مآذن الأزهر ،

ومن كل ما يذيعه أبواق الفرنسيين . هلم معنا يا لورا فإن النظر إليك ينسينا ما نحن فيه من هموم . فارتدت لورا حبرتها وغطت وجهها بنقابها ، واتجه ثلاثتهم إلى باب النصر ينتظرون قدوم الفاتح العظيم ، حتى إذا وقفوا هناك مع الجماهير المتزاحمة مر عليهم جماعات من عظماء المدينة يركبون البغال المطهمة ، فسألت لورا محموداً عنهم فقال :

ـــ أما هذا يا لورا فهو الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيس الديوان الخصوصى وشيخ العلماء ، وهو رجل أذله حب المال والجاه ، فتعلق بأذيال الفرنسيين لا يهمه أخربت البلاد أم عمرت ، وهذا هو الشيخ محمد المهدى وهو داهية واسع الحيلة ، يقتنص العصفور من بين براثن النسور ، يتملق الفرنسيين ليجتلب رضاهم ، ويصانع المصريين بالدفاع عنهم ، والسعى فى تخفيف ويلاتهم . أما هذا الشيخ الأسمر النحيل الجسد فهو رجل عظيم يا لورا ، إنه الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ الكبير ، علمت أنه يدون الحوادث كل ليلة قبل أن يذهب إلى فراشه ، وله حكم دقيق عادل على الوقائع والأشخاص . وهذا الشيخ الضئيل هو الشيخ خليل البكرى نقيب الأشراف . أما الشيخ الوقور الراكب إلى يمينه فهو السيد محمد السادات وهو رجل خطير الشأن ، يبغض الفرنسيين ويبغضونه ، وقد يرجى أن تكون

له يد فى إنقاذ مصر ، وهذا الذى ترينه منحنياً على قربوس بغلته ، وقد وشيت جبته بالذهب ، هو المعلم جرجس الجوهرى القبطى ، كبير المباشرين والكتبة ، وله فى هذه الدولة نفوذ عظيم . وانظرى يا لورا إلى هذا العتل الزنيم الراكب وراءه ، إنه برثلمى الرومى ، وهو نكبة مصر فى لأوائها ، كان من أسافل جند المماليك فعينه الفرنسيون وكيلا لحاكم القاهرة فطغى أشد الطغيان ، وأصبح صورة بشعة للقسوة والنهب وسفك الدماء والتجسس على الناس .

ودخل نابليون فى عظمته وجلاله من باب النصر يتبعه الجيش . فاخترق شوارع الجمالية وبين القصرين والموسكى ، حتى وصل إلى ميدان الأزبكية بين قصف المدافع ودق الطبول .

ولما انفرد محمود بنيكلسون ولورا قال : أشهد أن نابليون هزم فى هذه الموقعة وعاد مدحوراً ، أرأيتما كيف كانت عيناه تنطبقان أحياناً لكيلا تؤلمه رؤية هذا الاحتفال الكاذب ؟ أرأيتما جيشه خلفه وهو يكاد يسقط من الإعياء ؟ إنى أقسم أنه فقد نصف عدده . أرأيتما هذا النفر الضئيل الذى يسميه أسرى ؟ هؤلاء يا لورا من باعة الصابون الفلسطينيين الذين يتجرون فى مصر ، وفى ظنى أنه ظفر بهم وهم قادمون فزين له عجبه أن يتخذهم أسرى . فقالت لورا : أعتقد أن المبالغة فى

الاحتفاء به وحدها هى أوضح دليل على خذلانه. وقال نيكلسون: صدقت أيتها الفيلسوفة الصغيرة ، لكنى أقول إن عودته وحدها من سورية برهان نكبته ، لأن نابليون كان يرجو بعد فتح عكا أن يزحف إلى دمشق وحلب ، وأن يصل منهما إلى الأناضول فيحتل إستانبول ويقوض أركان الدولة العثمانية ، ثم يمضى بجيوشه نحو النمسا ويصل منها إلى باريس ظافراً منصوراً بعد أن امتلك الشرق والغرب ، فعودته بعد أن طاحت هذه الآمال خيبة ليس وراءها خيبة . على أننا سنسمع الخبر اليقين من ألبير غداً ، فقال محمود : ومن ألبير هذا ؟

— ضابط فرنسى ساخط على بقاء الفرنسيين بمصر .

وكانوا بلغوا منزل نيكلسون فودعهم محمود وانصرف .

قضى نيكلسون اليوم التالى فى رسم خريطة للقاهرة تبين شوارعها ودروبها وأشهر معالمها ، حتى إذا جاء وقت العصر غادر داره متجهاً نحو دكان محمود ، فرآه جالساً قلقاً ينتظره . فسارا معاً حتى بلغا الحانة ورأى نيكلسون ألبير جالساً فى إحدى زواياها ، وهو يذود الذباب عن وجهه ضجراً مغتاظاً ، فلما رآه ألبير صاح مبتهجاً : أدركنى يا صاحبى المغربى ! فإنه يظهر لى أن ذباب مصر ملتهب الوطنية ، وأنه حينما رأى أن المصريين لم يستطيعوا إخراجنا من مصر ، أراد أن يقوم بالأمر عنهم ، فابتسم نيكلسون وقال :

— إن الذباب يسقط على ما يحب لا على ما يكره .

— إنه حب من النوع القاتل ، فقد نكب هذا الحب جنودنا بالرمد المصرى والزحار وأنواع لا تكاد تحصى من الحميات القاتلة .

— الشاعر العربى يقول : ولا بد دون الشهد من إبر النحل ! والشهد هنا هو النيل ، فمن أراد أن يمتلكه ويتمتع بعذب مائه فليصبر على ما بشاطئيه من حشرات وأمراض . ثم التفت إلى محمود وقال : هذا ابن أخى ، فنظر إليه ألبير مبتسماً وقال : ولكنه يتزيا بزى المصريين .

— لأنه يريد مجاملتهم لتروج تجارته بينهم ، أوصلت إليك السجادات العجمية ؟

— أنت لم تمهلنى لشكرك ، وهذا الذباب قد علمنى سوء الأدب فلم أسارع منذ رأيتك إلى إظهار ما يملأ نفسى إعجاباً بك وبهديتك الغالية . حقًّا إنها سجادات يزدهى بمثلها قصر الشاه بإيران .

— هذا شىء قليل يا صديقى . أشهدت الاحتفال بمقدم نابليون بالأمس ؟ لقد كان غاية فى العظمة وجلالة الملك .

— نعم لقد كان احتفالا فخماً ، ولم ندخر وسعاً فى أن يكون صورة لقوة فرنساوضخامة سلطانها .

— ولكنى كنت أحب أن يصل نابليون إلى أبعد من عكا .

— فابتسم ألبير ابتسامة فاترة حزينة وقال : هذا ماكان يتمناه نابليون ويتمناه كل فرنسي معتقل فى أرض مصر ، فإنه بعد أن سد علينا طريق البحر بتدمير أسطولنا حاول قائدنا أن يسخر من العقبات وأن يشق لنا طريقاً برية تصلنا بفرنسا ، فوقف القدر فى وجهه فلم يجد إلا أن يعود أدراجه إلى مصر .

— إنها محاولة جريئة ، لن يقوم بها إلا نابليون العبقري .

— ولكن الثمن كان غالياً جدًّا ، والنكبة فادحة جدًّا .

ولمح نيكلسون غلام الحانة فأمره بإحضار كأس من الخمر ، وفنجانتين من القهوة ثم قال : إنهم يقولون إن نابليون عاد منتصراً ، ولكن ألبير مط شفته السفلى فى غيظ وأسف ، وقال : إن للسياسة يا صديقى لغة لا يفهمها الناس . وحضر الغلام فاحتسى ألبير كأسه دفعة واحدة ، وأمر له نيكلسون بأخرى . وهنا مال ألبير نحوه برأسه وقال هامساً : لقد أصبحت لى يا سوسى أخاً وحبيباً ، ولقد رأيت فيك ميلا للفرنسيين وحبًّا خالصاً لهم ، وليس من حرج أن أكشف لك خبيئة كل أمر . لقد اطلعت بالأمس على رسالة طويلة كان بعث بها الجنرال « رينييه » إلى دوجا منذ أسبوع يصف فيها هذه الحملة وصفاً دقيقاً فيقول : إنهم تغلبوا على الجيش العثمانى فى العريش واستولوا على يافا بعد حصار

شديد ومعركة عنيفة ، وإن الجنود ارتكبوا فى يافا من القتل والنهب ما تقشعر له الأبدان ، وفى هذه المدينة انتشر بين الجند وباء ماحق كاد يقضى عليهم جميعاً ، وفيها أمر نابليون بإعدام ثلاثة آلاف من الجنود العثمانية دفعة واحدة بعد أن ألقوا السلاح ، وبعد أن تعهد لهم بعض ضباطه بسلامة أرواحهم إذا سلموا . ثم استأنف الجيش سيره فاحتل حيفا ، ثم اتجه نحو عكا وهى مدينة محصنة بها جيش قوى من العثمانيين يقوده أحمد باشا الجزار ، وهو قائد شديد المراس قاس ، خبير بشئون الحرب ؛ واشتعلت المعارك بينه وبين الجزار طاحنة شديدة الأوار . ولما طال الحصار وضعف جند نابليون وعظمت خسائره ، ارتد عنها بالبقية الباقية من جيشه ، وزاد فى قوة عكا أن الأسطول الإنجليزى بقيادة سدنى اسمث كان يظاهر جيش الجزار ويحول دون وصول السفن الفرنسية بالذخائر إلى الشاطىء ، وقد أسر منها سبعاً كانت قادمة من مصر تحمل مدافع الحصار وكثيراً من الذخيرة ، فضمها إلى أسطوله . وهكذا عاد نابليون إلى مصر حزيناً يائساً بعد أن فقد خيرة رجاله

ـ لقد أحزنتنى يا ألبير ، إنها حقًّا لكارثة جائحة تشبه كارثة الأسطول الذى دمره نلسون ، ولكن نابليون رجل خلاق للفرص يتخذ دائماً من خذلانه ذريعة لفوزه وانتصاره

ـ إنه يحارب فى غير ميدانه يا صديقى ، ويحاول اغتصاب بيت بعيد عنه ، وهو غافل عن بيته الذى كادت تلتهمه النيران ، ويضيع جهوده فى صحراء قاحلة بينما يترك جنات أوربا يتواثب عليها الأعداء !

وطال المجلس فوقف نيكلسون ومحمود وودعا صاحبهما وانصرفا . وأجمل نيكلسون لمحمود ما حدثه به ألبير فاغتبط وقال : هذه ضربة قاصمة ستليها بحول الله ضربات . فقال نيكلسون : أغلب ظنى أن نابليون لن يستطيع البقاء فى مصر طويلا بعد هذه النازلة ، وعلى المصريين أن يهتبلوا الفرصة ويثبوا على الأسد وهو يلعق جراحه .

مضت أيام والمصريون فى ثورة نفسية عنيفة يكتمها الحذر بعد أن شاعت الأخبار بينهم بهزيمة نابليون بسورية وارتداده عن حصون عكا ، ثم ملأت الإشاعات جو القاهرة بنزول الجنود العثمانيين بأبى قير . وأحس نابليون بالحرج وأدرك ما فى الموقف من خطر ، وبخاصة بعد أن علم أن أسطول سدنى اسمث يرافق العمارة العثمانية . فأرسل أوامره إلى قواده ووثب بجيشه على العثمانيين واشتد الصراع وطال أمده ، حتى انتهى بهزيمة الأتراك والاستيلاء على مدافعهم وذخائرهم .

ما كاد محمود يتنفس الصعداء ويستبشر بقدوم العثمانيين حتى دهمه الخبر بهزيمتهم فلزم داره أياماً ، وحين برّحت

به آلام الوحدة ذهب إلى نيكلسون بداره يشكو إليه بثه وحزنه . ولكن نيكلسون لاقاه ضاحكاً مستبشراً وقال : قربت النهاية يا بنى فلا تبتئس . ثم أخرج من صندوق أمامه جريدة إنجليزية وقال : بودى لو كنت تستطيع قراءة هذه الجريدة يا محمود . قابلت بالأمس ألبير وبعد أن تحدثنا طويلا ، وهممت بالانصراف أدخل يده فى جيب معطفه وأعطانى هذه الجريدة وقال : اقرأ هذه يا صديقى تعلم أن كل ما تخيلته منذ أيام كان صحيحاً . فسألته من أين له بهذه الجريدة فقال :

— إن سدنى قائد الأسطول الإنجليزى — وهو من نوابغ الإنجليز وكبار عباقرتهم — اغتنم فرصة ذهاب ضابطين بعث بهما إليه نابليون للتحدث فى تبادل الأسرى ، فأحسن لقاءهما وزودهما ببعض الصحف الإنجليزية . وما كان يريد سدنى اسمث بهذه الهدية الغالية إلا أن يطلع نابليون على ما أصاب أوربا من الاضطراب وما دهيت به جيوش الفرنسيين فى إيطاليا من الهزائم . وأكبر ظنى أن نابليون لن يقيم طويلا فى مصر بعد أن وصلت إليه أنباء هذه الكوارث . ثم أخذ يقرأ علىّ فقرات مما جاء بالجريدة فكان منها أن الفتن اشتدت بألمانيا والنمسا وإيطاليا ، وأن السخط وبوادر الثورة على حكومة فرنسا عام شامل ، وأن

إنجلترا لا تفتأ تشن غاراتها على أملاك فرنسا بالبحار ، وأنها اجتذبت إليها روسيا وتركيا فصارحتا فرنسا بالعدوان . وهنا قال محمود : إن خروج نابليون من مصر فرار من الميدان ، واعتراف صريح بأن السيف والنار لا يستطيعان أن يملكا القلوب أو ينهنها من عزيمة أمة عزلاء أمضت إرادتها أن تعيش عزيزة لا تلين قناتها لغاصب .

هذه الأخبار يجب أن يطلع عليها الشيخ السادات ، فهلم بنا إليه .

١٠

لقيت زبيدة من زوجها مينو أول الأمر شغفاً وهياماً وطرقاً فى الغزل وشكوى الصبابة لا عهد لها بها ، فكان يجثو أمامها فى ذلة واستعطاف كما يجثو الراهب فى محرابه ، ويتمتم فى أذنها بأحاديث من الحب والوله تختلط بإشارات وحركات ينتفض لها قلب كل فتاة . وقد أتقن مينو هذا الفن بعد أن تدرب عليه طويلا فى مجتمعات باريس . وكان كثير من شبان أوربا فى هذا الحين يعدون إغراء المحصنات بأساليب الختل والكذب فناً رفيعاً وثقافة عالية . فالذى لا يغازل أبله . والذى لا يستنزل فضيلة

المرأة البتول من قمة قدسها إلى أسفل درك لا يعد رجلا كامل الذوق واسع العلم بالحياة .وإذا تنافس فرسان العصور الوسطى فى الشجاعة وإغاثة الملهوف والأخذ بيد الضعيف ، فإن فرسان أوربا فى هذا العصر كانوا يتنافسون فى نصب الحبائل للغيد الفاتنات . ولقد سرى الداء إلى النساء فلم يعد الطهر طهراً ، ولا العفاف عفافاً ، حتى إن المرأة كانت تباهى بكثرة عشاقها .

وأجاد الشبان دروس الغزل ، وأعدوا لكل نوع من النساء نوعاً خاصًّا منه ، كأنهم باعة ثياب يبيعون لكل مستام ثوباً على قده . وقد قطعوا الصلة بين اللسان والقلب ، وبين الوجه والضمير ، فهم يتحدثون عن الحب وليس فى قلبهم منه إلا فتكات اللص وشهوات البهيم ، ويبكون فى ضراعة ووجد وضميرهم يسخر ويقهقه من غرور المرأة وقرب وقوعها فى الشرك .

ولكن مينو كان زوجاً ، عقد له على زبيدة بكتاب الله وسنة رسوله ؛ فلماذا يعصف به الحب ويدلهه الغرام ، ومحبوبته بين ذراعيه ، وهى له وحده لا يزاحمه فى حبها مزاحم ؟ ألأن النشوة الأولى بهرت الرجل ولعب بلبه ما رأى فى زوجته من سحر وفتنة ، أم لأن الرجولة فيه كانت عاتية طاغية فلم يملك إلا أن يجد لما يجيش فى نفسه متنفساً بالغزل وبث

الغرام ؟ أم لأن العادة جرفته فأخذ يكرر فى بيت الحاكم برشيد تلك الدروس التى حفظها وأجاد إلقاءها فى حفلات فرنسا ؟

وكانت زبيدة بعد زفافها فى بحر مائج مضطرب من الأفكار والهواجس . أترضى بما قسمه لها القدر ، وتقنع بهذا الزواج الذى سيجلسها على عرش مصر ، فتجزى زوجها حبًّا بحب ؟ أم تسخط على صلة دفعها إليها أمل كاذب مغرّر فتنكمش بقدر ما يحسن بها الانكماش ، ولا تعطى هذا الفرنسى إلا ما تسمح به الفتاة الملول ؟ لم يكن فى الجنرال مينو شىء يغرى المرأة بالرجل قط : وجه غليظ دميم القسمات ثقيل الملمح ، وجسم بدين إلى القماءة أقرب ، وكرش بارزة كأنها الزق المنتفخ ، ثم هو وقد خطا نحو الخمسين لم يبق فيه مأرب للنساء ولو كان فى جمال يوسف الصديق . فكرت زبيدة طويلا وقدرت طويلا ، فجال بخاطرها محمود وما أنعم الله به عليه من كمال فى الخَلق والخُلق ، وجمال فى النفس والجسم ، ورجولة ناضجة تهوى إليها قلوب النساء ، وعقل راجح يلعب بألباب الرجال . جال ذلك بخاطرها فثار حبها القديم ، وهاجت عواطفها الكامنة ، وتأججت بفؤادها نار من الوجد طالما أخمدتها بماء دموعها ، لأنها لن تصل بمحمود إلى ما تريد من ملك مصر ، ولأن حبه لا يحقق لها تلك الأحلام الذهبية التى

منتها بها رابحة العرافة وأين محمود وأين جهارته ، من مُلك سامق البنيان عزيز السلطان تعنو إليه الوجوه وتنحنى الرءوس ؟ هكذا مضت أيام زبيدة ، وهى تفكر وتثير غبار الماضى ، لا يمر بخاطرها ذكر محمود حتى تثور عليه حزينة متألمة ، فإذا نسيته أو شغلها عنه شاغل حنت إليه وتشبثت بخياله تبثه وجداً متأججاً وحبًّا كميناً . ولكنها أبت فى النهاية أن تمنح قلبها رجلا جر العار إليها وإلى أهلها . فقد فر أبوها من المدينة يوم خطبتها ، وبخع الحزن نفس أمها أسفاً ، وجانبتها عشيرتها فأصبحت أشبه بأسيرة فى جيش الأعداء ، وإن أحاطت بها صنوف النعيم . وفى ذات صباح أطلت من نافذة قصرها فرأت الجنود والحراس وقد التفوا حول امرأة فى ملاءة بالية ، وهى تصيح فى وجوههم وتقذفهم بأبلغ ما تضمنته معجمات العامة من شتائم ، فأطالت زبيدة النظر فإذا هى رابحة العرافة ، فأرسلت فى عجل إحدى وصائفها لتأمر الجند بإدخالها . دخلت رابحة على زبيدة مربدة الوجه ، وبعد أن تنهدت طويلا ، قالت :

— أسعد الله صباح الملكة .

— الملكة ؟ هكذا مرة واحدة يا رابحة ؟ إن الفرنسيين لم يدعوا فى مصر ملكاً ولا ملكة ولا أميراً ولا أميرة .

— نعم ، ولكن كل هذا لن يحول دون أن تكونى ملكة ،

إن علمى لن يكذب أبداً ؛ اللهم إلا إذا محيت خطوط كفك اليمنى .

ـ ولكن أين أنا الآن من هذا الملك الموهوم ؟ وهل زواجى بهذا الفرنسى يقربنى خطوة إليه .

ـ لا أدرى ، لأننى أعرف الغايات ولا أعرف الوسائل ، وكثيراً ما دهشت لأعاجيب القدر ، وكثيراً ما كتمت ما أراه من لمحاته حتى لا يسخر الناس منى .

ثم غيرت مجرى الحديث وقالت: لقد زرت أمك منذ أيام فساءنى ما رأيت من ذبولها وشدة حزنها لاختفاء أبيك . أما أعجب العجب فابتهاج أخيك على الحمامى وازدهاؤه بصهره الجديد ؛ لقد نسى المسكين كل معنى للرجولة بعد أن أغدق الجنرال عليه وجعله رئيس التجار وموضع الشفاعات ، وأجرى عليه النعم . فهو اليوم يركب جواده فى كبر وتيه ، وأمامه ثلة من الجنود الفرنسية توسع له الطريق . ولن تذهب سفينة إلى القاهرة أو الإسكندرية إلا بإذن منه ، ولن يصدر هذا الإذن إلا بمال يكاد يصل إلى قيمة ما تحمله السفينة . وبينما هى فى الحديث إذا صوت جهير تتردد صيحاته فى الأفق تبينتا فيه صوت الشيخ على سريط وهو يقول :

ـ « طأطئوا الرءوس ، للعروس ، وإن ذهب الإسلام ، وعبث الذئب بالأغنام » .

فتجهمت زبيدة ووجمت رابحة ثم قامت وهى تقول :
سأطأطىء الرأس للملكة ، أما الإسلام فله رب يحميه .
وانفلتت كأنها الطائر المروع . وبعد خروجها دخل المترجم
إلياس فخر ليلقن زبيدة درساً فى اللغة الفرنسية ، فكان
يلقى عليها جملا بالفرنسية مع بيان معانيها بالعربية ويطلب
إليها تكرارها ، وكان لهذه الجمل سبيل واحدة ، فكلها
من أمثال : أحبك ، لقد ملأ حبك قلبى ، لقد ملكت
فؤادى ، إن غيابك يؤلمنى ، إلى غير ذلك من أمثال هذه
الترهات ، وكانت زبيدة تكرر هذه الجمل ذاهلة حزينة .
وبعد انتهاء الدرس أخذ المترجم كعادته يفيض فى عظمة
الجنرال وشرف محتده وعلو منزلته ، ويصور لها ما ينتظرها
من المجد الشامخ والعز السامق ، وهى تهز رأسها بحركات
آلية لا أثر للحياة فيها ، وبعد قليل سمعت أصوات الأبواق ،
وعلا صياح الجند بالتحية لقدوم الجنرال مينو ، واصطف
الحراس واهتزت أرجاء المكان ، ودخل مينو القصر فى
عظمته وجبروته ، فسار تواً إلى حجرة زبيدة فانحنى أمامها
يقبل يدها ، وحيا إلياس فخر بإيماءة من رأسه ، وقال :
كيف تلميذتك اليوم ؟ إنها أدهشتنى بالأمس ، فقد
فهمت كل ما ألقيته فى أذنها من الجمل اللطيفة . ثم
التفت إلى زبيدة قائلا : ألم تكن لطيفة يا حبيبتى ؟ فأسبلت

عينيها فى ضجر يشبه الخفر ، وقالت بعد أن تنهدت : نعم لطيفة . ثم قامت تتعثر فى أذيالها كما يمشى الحالم ، وغادرت الغرفة .

وهنا دخل على الحمامى فحيا الجنرال كما تحيا الملوك ، وانتحى ناحية قاصية فى الغرفة حتى إذا أومأ إليه مينو بالجلوس جلس مطرق الرأس يجمع أطراف ثوبه فى أدب وذلة ، ويخفى قدميه تحت الكرسى مبالغة فى الخضوع ، فلما اطمأن به المجلس سأله مينو : هل سافرت السفن إلى القاهرة ؟

ــ نعم يا سيدى سافر اليوم عشرون سفينة محملة بالأرز الأبيض ، فيكون ما بعث به إلى القاهرة فى هذا الشهر سبعين سفينة ، منها ثلاثون محملة قمحاً .

ــ هل تألم التجار من إرسال هذا المقدار العظيم ؟

ــ إنهم دائماً يتألمون يا سيدى ، ولو ترك لهم الأمر ما سمحوا بسفينة واحدة ، لأنهم يبيعون أردب القمح خفية بسبعة عشر ريالا ، فى حين أنه يباع للجيش الفرنسى بثلاثة ريالات . أما الأرز فكثيراً ما ضبطت السفن وهى ذاهبة به إلى السوق ليباع هناك بسعر مرتفع .

ــ ولكنى أخشى ألا نكون قد تركنا لأهل البلد من الحبوب ما يكفيهم .

ـ الواقع يا سيدى أنهم فى ضائقة ولكن غلة العام القابل ستكون وافرة .

وفى هذه اللحظة دخل إينال مملوك الجنرال الخاص وقال فى صوت خافت : حان وقت الجمعة يا سيدى الجنرال ، والجنود على استعداد لموكب الصلاة التى ستكون فى مسجد زغلول . فظهر على وجه مينو الامتعاض الذى يظهر على وجه مريض تقدم إليه جرعة لا تساغ ، وقام فى تثاقل وهو يقول : الصلاة ، الصلاة ، دائماً الصلاة ، ثم خرج فإذا موكب حافل من فرسان الفرنسيين وجنود المماليك والترك ، وقد حمل كل فارس الراية الفرنسية خفاقة فى الهواء متخايلة فى الفضاء ، والموسيقى تعزف النشيد الوطنى الفرنسى . وكان مينو فى وسط الموكب فوق جواد كميت يختال فى مشيته كأنما سرى إليه زهو صاحبه ، حتى إذا بلغ الركب المسجد دخل مينو حاسراً عن رأسه ، فتلقاه الإمام وفى يده عمامة خاصة به كانت تحفظ فى خزانة بالمسجد ، فلما وضعها على رأسه طافت حول شفتيه ابتسامة خفيفة مبهمة ، تذكر عندها باريس ، وتذكر ملاهيه فى مرسيليا وبوردو ، وعجب من الضرورة التى دفعته إلى دين لا يعرفه بعد أن طلقت فرنسا كل دين . تذكر كل هذا فتملكه زهو الملوك ، وطاف بنفسه أنه فوق طبقة البشر ، غير

أن صوتاً جهيراً فى هذه اللحظة انطلق من المئذنة فصك أذنيه صائحاً : الله أكبر ! الله أكبر ! فلم يلبث المسكين أن نكس رأسه فى استخذاء ، وعلم أنه لا شىء .

١١

انفردت زبيدة فى حجرتها بعد أن تركت مينو ، وقد ساءها كثيراً حديث العرافة وتكهناتها ، وهجم عليها همّ جاثم لا تستطيع له دفعاً ، وهالها أن تصطدم آمالها بصخرة من الحقائق لا ترحم حزيناً ولا تواسى بائساً . وبينما هى تحملق فى صور ماضيها الجميل وهى تمر بخيالها متتابعة ، وتود لو تستطيع أن تطيل وقفة هذه الصور المرحة الضاحكة قليلا ، أو أن تحول دون ظهور أية صورة من ماضيها القريب الذى كله هموم وأحزان ، إذا خادمها سرور يدق الباب ويعلن قدوم سيدته نفيسة . ولم يمض إلا قليل حتى دخلت أم زبيدة وقد برح بها المرض حتى أصبحت لا يكاد يعرفها من رآها ، فقد زادت غضون وجهها ، وانطفأ بريق عينيها ، وانحنى ظهرها تحت ما يحمل من أرزاء وأعباء . دخلت فقبلت وجنتى بنتها فى شغف واحتراق ، ثم حاولت أن تكتم ما يبدو من جزعها بضحكة مصنوعة ،

أو نكتة بارعة فلم تستطع ، ولكنها قالت فى النهاية :
كيف حالك يا زبيدة ؟ فتنهدت زبيدة طويلا وقالت :
ــ تسألين عن حالى يا أماه ؟ أوَتريدين حقًّا أن تعرفيها ؟
إذاً فاسمعى : لقد كنت يا أمى فى سفينة بين أهل وأحباب ، حديثهم ابتسام ، ومناجاتهم غرام ، ينعمون فيها بنعيم الروح ولذة الجسد ، بين روح وريحان ، وضحك من القلوب لا من الأفواه ، وحب تعجز أن تعبر عنه الشفاه ، كأن الدنيا لم تخلق إلا لهم ، والسعادة لم ترف إلا عليهم ، ألغوا الزمن فلا ليل ولا نهار ، وألغوا الفكر فلا خوف ولا حذر ، وألغوا الغيرة فلا حقد ولا دخل ، وبينما كانت هذه السفينة الفردوسية تمخر العباب يا أماه مزدهية مختالة ، تجرى فتداعبها اللجج ، وتجر ذيلها فتقبله الأمواج ، إذا عاصفة عاتية هوجاء كالجنون ، مدمرة كالموت ، ترفع البحر ثم تقذف به ، ثم ترفعه ثم تقذف به ، كأنه كرة فى يد مارد جبار .
فلم تلبث السفينة يا أماه أن ذهبت بدداً ، وتمزقت قطعاً ، وهالنى الأمر ، وأخذ منى الهلع فنسيت التدبير ، ونسيت الرأى ، ونسيت الحيلة ، وتشبثت بقطعة من السفينة خائرة قذفتنى بها الأمواج إلى جزيرة فيها أشجار وفيها أنهار ، ولكن ثمر أشجارها زقوم ، وماء أنهارها سموم ، وهى قفر من بنى الإنسان إلا مخلوقاً غريب السمة جاء يتودد إلىّ ويتخذنى

له زوجاً . أما أهلى ، وأما أحبابى ، فقد تفرقوا أيدى سبأ ، وبقيت وحدى فى هذه الجزيرة الملعونة مع هذا المخلوق الغريب . هذه حالى يا أمى . وكيف حالك أنت ؟

ــ أنا كنت من ركاب هذه السفينة ، وقذفت إلى جزيرة أخرى ليس فيها أحد من بنى الإنسان ، ولكنها ملأى بوحوش من هموم وآلام ، أما أبوك فرماه الموج إلى جزيرة نائية لا نعرف إليها طريقاً .

ــ وابن خالتى محمود فى جزيرة رابعة ! ! آه يا أماه ! هل يلتقى هذا الجمع الشتيت ؟ وهل تعود تلك الأيام التى كانت حلماً هنيئاً ؟

ــ تعود عند ما تهدأ العاصفة ، ويسكن البحر المائج ، وتجرى السفن مرة أخرى . لهفى على محمود ! لقد وضع بين يديك حبًّا لو فرق على الناس جميعاً ما ترك فى صدر غلاً ولا حفيظة ، فنبذته فى قسوة وعزوف ، فلم ييأس بل ثنى يده على قلبه صابراً وفيًّا وقلبه يقطر دماً ، وراح يناجى الطير لما صرفت عنه أذنيك ، ويضاحك الآمال لما أقصاه عنك العبوس . وقد كنت عنده ــ رضيت أم غضبت ، وصلت أم هجرت ــ القدس الطاهر الذى لا يطلب على حبه ثواباً .

ــ كفى يا أمى إنك لا تعرفين . قاتل الله رابحة العرافة ؛

وقاتل الله الطموح الكاذب ، وقاتل الله الخيال الخصيب الذى جعلنى أبيع عزًّا حاضراً ، وحبًّا طاهراً ، بأمل عقيم وأمنية حمقاء . فقدت ما فى يدى لأقبض على برق خلب يلمع فى أجواز الفضاء !

ــ أكنت تحبين محموداً حقًّا ؟

ــ كنت أحبه ؟ كنت ولا أزال ولن أزال ، وسأموت شهيدة حبه ، وسأردد للملكين عند سؤال القبر أنى أحبه .

ــ ولماذا رضيت بهذا الفرنسى ؟

ــ لأن القدر هو الذى رضى به لى . على أننى أظن أنى ساعدت القدر بجنونى وتسويفى وتمسكى بخرافة بعت بها روحى وجسمى للشيطان . بالله دعى الحديث فى هذا يا أمى ، فإننى أتخيل دائماً أن شبابى ميت مسجى ، وأننى بجانبه أنثر عليه الدموع .

ــ ولكن هذا يقتلك يا بنيتى ، فاطوى الماضى ، وأصلحى من شأنك بالطمأنينة لحكم الله . إن حسن الأشياء وقبحها أمران خياليان : فالنفس الجميلة الراضية ترى كل شىء جميلا ، والنفس الساخطة الصاخبة ترى كل شىء قبيحاً . انظرى إلى ما أنت فيه من عز وجاه ، وإلى هذا القصر الفخم والرياش الفاخر ، ثم إلى هؤلاء الخدم والعبيد وقولى إنى سعيدة ، وأقنعى نفسك بأنك سعيدة تكونى سعيدة حقًّا .

ـ هيهات يا أماه ! هذا كلام لطيف براق . إن من الجائز أن يقنع الإنسان غيره بما يحس أنه حق ، أما أن يقنع المرء نفسه بعكس ما يحسه فهو محال . إن محموداً خلق ليكون لى زوجاً ، وخلقت لأكون له زوجة ، ولكن القدر الساخر أراد أن يتحكم فى طبائع الأشياء ، وأن يعبث بالغرائز والميول ، فاستهوى غرائزى وخدع ميولى ، فأغلقت باب سعادتى بيدى ، وسننت السكين لقطع كل صلة بينى وبين السعادة والحب والحياة . ويحى عليك يا محمود ! إنك تظننى امرأة غادرة فاجرة ، ولك الحق فى أن تظن ما تشاء . أفنيت كل أساليب الاستعطاف والغزل والتذلل والاستجداء أمام قلب صخرى كان عنك ذاهلا تغويه الأحلام ، وتصده دونك الأوهام . لم لا أطير إليه فى القاهرة وأحطم هذه القيود الظالمة التى يسمونها قيود الزوجية ؟ وهل كانت الصلة بينى وبين هذا الفرنسى شرعية ؟ وهل ينعقد زواج فتاة فر أبوها فاقتنصتها طائفة من أصحاب المنافع من أهلها فكتبوا ما كتبوا وسجلوا ما سجلوا ؟ وهل يعد قبول فتاة فى هذيان حمى الأوهام ، وجنون الطموح المأفون قبولا ؟ لا يا أماه . إن الناس جميعاً يعدوننى خليلة لهذا الفرنسى . وإن ائتمار طائفة من العمائم بفتاة مسكينة ، وتدوين عقد زواج فى محكمة ، لا يغير من وجه المسألة شيئاً . إن الشرع

الشريف كما أخبرنى الشيخ صديق يوجب الكفاءة بين الزوجين . وأول ما أفهمه من معنى الكفاءة إنما هو تماثل الأخلاق واتساع الطبائع . وأين ذلك التماثل بين فتاة مصرية فى رشيد وشيخ فرنسى من باريس ؟ وقد كان محمود العسال يقول لى إن زوج الرجل يجب أن تكون قطعة منه ، ويكرر الآية الكريمة : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » . فالقرآن ينص على أن الزوجة من نفس الرجل ، ويجعل ذلك سبباً للسكون إليها والسعادة فى كنفها ، وتبادل المودة والرحمة والحنان بين الزوجين . وأعتقد أن هذه الآية صورت فى إيجاز ما يريده الفقهاء من معنى الكفاءة الزوجية ، لأن المرأة إذا كانت من نفس الرجل وجب أن يتماثلا فى الحب والعادات والأفكار والميول . وأين أنا من هذا الفرنسى ؟ شرق وغرب بينهما أميال وأميال ؛ وتباين كامل فى كل شىء ، فهل بعد هذا أخضع لهذا الزواج ؟ وهل بعد هذا أرضى بهذا السجن الموحش ولا أفر إلى محمود ؟

– بالله عليك يا زبيدة لا تضمى إلى حزننا حزناً جديداً ، فقد طفح الكيل ، وبلغ السيل الزبى .

– إن الفرار من العار ليس بعار .

– ولكن فرار الزوجة من بيت زوجها إلى بيت رجل

آخر عار أى عار . ثم من هو زوجك ؟ هو رجل نافذ الأمر قوى السلطان شديد البطش ، فلو فررت منه فى أنفاق الأرض ، أو أبراج السماء لامتدت إليك يده ، ولنكل بك وبنا وبابن خالتك محمود . على أن فرارك سيثير الفضيحة من جديد ، وينبه العقول إلى أمر أوشكت أن تنساه ، ويجرئ الأيدى القاسية على العبث بجرح أخذ يندمل .

— ليس لشىء من هذا يا أمى أخشى الفرار ، فما أبالى الناس ولا آبه لحديثهم إذا ظفرت بمحمود ، ولكنى أخشى الفرار لشىء واحد كلما مر بخاطرى وددت أن الأرض ابتلعتنى ، أو أن السماء أقلتنى . ويلاه يا أمى ! إنى أخشى ألا يمر بنا هذا الحادث دون أن يضع وصمته .

— ماذا تقصدين يا زبيدة ؟

— أقصد أن المرأة إذا عاشت مع رجل شهوراً فنى أغلب الظن أن ينشأ بينهما ثالث .

— وهل شعرت بما تشعر به الحامل ؟

— لا ، ولكن من يدرينى ؟

— صانك الله ياابنتى من كل سوء، وكشف عنك كل ضر.

— ليس لنا إلا أن نلجأ إلى الله ، فإن فى الالتجاء إلى رحمته راحة للمحزونين . أسمعت شيئاً عن أبى ؟

ـ لا يا زبيدة ، وقد كتبت إلى أختى أمينة. وإلى محمود فكان جوابهما أنهما لم يعثرا له على أثر بالقاهرة بعد طول البحث ، وأخشى أن يكون . . .

ـ لا تقوليها يا أمى ! فيكفى ما نحن فيه من مصائب وأحزان . وهنا دخل سرور فى أدب وتردد ، وجثا على قدمى نفيسة باكياً وهو يقول : يا سيدتى لا تحرمى سيدتى الصغيرة من زيارتك فإنى أراها دائماً حزينة كاسفه البال ، فيتقطع قلبى ، ويشتد ألمى ، لأنها ابنتى ، ربيتها على كتفى، وكنت أطعمها فأشبع ، وأسقيها فأروى . إنها تغلق عليها باب الغرفة طيلة النهار لتنفرد بأحزانها وبكائها . وماذا يجدى البكاء ؟ وهل ينفع حذر من قدر ؟ إنها ليست بنتى زبيدة التى أعرفها من حين أن كانت فى مهدها . أين ضحكاتها المجلجلات ، وبسماتها الساحرات ، وأحاديثها الفاتنات ؟ لا تغيبى عنها ياسيدتى !

فقاطعته نفيسة وقد وضعت يدها على كتفه فى حنان، وقالت :

ـ لن أغيب عنها ياسرور ، إننى لم يبق لى من الدنيا إلا زبيدة وأنت ، فاحرسها لى يا سرور، واسهر عليها وصنها بروحك ودمك . إن أول شيء اشترطته عند زواجها أن تكون معها ، فهى وديعتى عند الله وعندك ، وهذا هو الذى

يهدئ نفسى ، ويخفف من شجونى . ثم أسرعت فقبلت زبيدة ، وحيت سروراً ، وخرجت وهى تخفى تحت نقابها سيلا من الدموع .

١٢

نعود بالقارئ إلى القاهرة بعد أن قضينا معه وقتاً طويلا فى رشيد لنرى أن الخطوب فيها مازالت تتلاحق وتتعاقب ، وسحائب الكوارث ما فتئت تتجمع وتتراكم . فقد غادر نابليون القاهرة على حين غفلة من جيشه ومن أهلها ، فى الثامن عشر من أغسطس سنة ١٧٩٩ بعد أن رأى آماله ركاماً ، وأطماعه أحلاماً ، وبعد أن سمع بأذنيه ضحك القدر ، وأحس بسخرية الأيام . فانطلق به النيل إلى أحد شاطئيه بالقرب من الإسكندرية حزيناً مهموماً ، يرى فى كل موضع قدم قبراً ، وفى كل لجة من لجج البحر شركاً . انطلق به النيل وطفق يجرى ويمور كما كان يجرى ويمور منذ القدم ، وأخذت أمواجه تقهقه من طموح الإنسان ، وتحديه أحكام الزمان . نابليون يعود أدراجه إلى بلاده مخاطراً بنفسه ، بعد أن انقطعت به إليها السبل ، وربضت له بوارج الإنجليز فى البحر تنتظره ، كما ينتظر الأسد الطاوى فريسته ! جاء

إلى مصرفلم يظفر بشىء ، وأضاع كل شىء ، فكم وعد وكم صانع ، وكم تنمر وهدد ، فلم تفتح له مصر قلبها ، ولم تلق أمام قوته سلاح ضعفها . قامت الثورات فى كل مكان فعجز بطل إيطاليا وقاهر النمسا ، والفارس المعلم فى فرنسا ، أن يخمد نارها أو يطفىء أوارها . ولم تغن عنه عدده وآلاته الحديثة شيئاً أمام عصىّ المصريين المخلصين ، الذين قذفوا بأنفسهم للموت فى سبيل وطنهم . ثم ذهب إلى الشام فلقنه الجزار درساً أطار من نفسه ذلك الزعم ، الذى سول له أنه رجل الدنيا وواحدها . نظر — وهو يغادر مصر — إلى جنوده المغاوير ، فإذا هم حفنة من المهازيل الساخطين ، أكلت الحروب والثورات والطواعين خيرة رجالهم ، وحصدت نخبة أبطالهم . ثم التفت فرأى الجوع والفقر والسخط فى ظل سياسته ، يمزق أوصال مصر ويهدد كيانها ، وأن قوانينه وفلسفته لم تجعل مصر سعيدة ، وأن ماجمعه من الضرائب والمكوس لم يكف لنفقة جنده وأن إيراد مصر أيام المماليك الجهلة الأغبياء كان أربعة أمثال إيرادها فى عهده المتلألىء الزاهر ! فكر فى فرنسا وفيمن فيها ، فإذا هم أعداء ألداء قذفوا به فى أتون مصر ، ليستريحوا من توثبه وطموحه ، وإذا زوجه « جوزفين » التى ألقى بحبه تحت قدميها ، تدوس ذلك الحب وتنسى ذكراه ، كأنها أضغاث حالم .

ذكر كل هذا وهو واقف إلى جانب قصر القياصرة ، على شاطئ البحر بالإسكندرية ، فبكى ملء عينيه ، وأنّ أنين البائسين .

سافر نابليون إلى فرنسا بعد أن جعل الجنرال كليبر خلفاً له بها . وكان كليبر شديد الاعتداد بنفسه ، مولعاً بمظاهر الملك . وقد فدح المصريين فى أول عهده بفنون من الضرائب اعتصرتهم اعتصاراً ، فزاد سخط الناس ، وتأججت الصدور بالغيظ ، وكثرت الاجتماعات السرية والمؤامرات . وكان محمود العسال فى ذلك الحين لا يزال بالقاهرة ، وكان يكثر من زيارة لورا ونيكلسون . وقد آن لنا أن ندون هنا أن هذه الزيارات المتكررة ، إلى قنوطه من التزوج بزبيدة ، إلى ما كان يحسه من عطف لورا ورقتها وقوة جاذبيتها ، جعلته يحن إلى بيت نيكلسون ويشعر عند مشاهدة لورا والجلوس إليها بلذة روحانية عجيبة ، أبى عليه كبره أن يعللها ، لأنه كان يريد أن يقبر حب زبيدة فى قلبه ، وأن يعتز به ويتسلى بذكرياته ، وإن كان حبًّا يائساً عقيما . وحينما رأى نيكلسون تكرار هذه الزيارات ، وقرأ فى وجه ابنته ابتهاجها بها ، عرض عليه أن يساكنهما فى هذا الزمن المضطرب بالمخاوف والأحداث . فقبل محمود شاكراً ، وانتقل من بيت ابن عمه حسين إلى بيت

لورا بالكحكيين . وكان يخرج مع نيكلسون لزيارة المتآمرين على الفرنسيين ، أمثال الشيخ السادات ، والسيد عمر مكرم ، والسيد المحروق ، وغيرهم . وكانا يسقطان بين الحين والحين على الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، ليلتقطا منه أخبار القاهرة والأقاليم . فغشيا داره بالصنادقية ذات ليلة ، فوجداه منحنياً على بعض الأوراق وقد وضعها على فخذه ، وأخذ يكتب فيها مادون فى صحف انتثرت حوله . فلما دخلا ذعر الشيخ أول الأمر ، وانكب على الصحف يجمعها ويخبؤها تحت سجادته ، ولكنه حين عرفهما أخذ يقهقه ويقول : لاتؤاخذانى يا سيديّ ، فإننا أصبحنا فى زمان نخاف فيه من خيالنا فى المرآة . أسعد الله مساءك يا سيدى محموداً . ثم اتجه إلى نيكلسون وقال : كيف حال الحاج السوسى؟ هل من أخبار ؟

ـ الأخبار عندك أنت يا مولانا .

ـ عندى أخبار سارة ، ويا حبذا لو صحت الأحلام ؟

فأسرع محمود سائلا فى لهفة واضطراب : وما هى يا مولانا الشيخ ؟

ـ علمت اليوم فقط من المعلم نقولا الترك المترجم ، أن كليبر فى أول ولايته كتب إلى الصدر الأعظم للدولة العثمانية رسالة مطولة يطلب فيها الصلح بين الدولتين . وأن تعقد معاهدة لخروج الفرنسيين من مصر .

فقال نيكلسون : هذا ما ظننته ، فإن موقعة أبى قير الأولى التى حطمت سفنهم ، لم تترك فى نفوسهم خيالا من أمل فى البقاء بمصر . ثم قال الشيخ الجبرتى :

— وبلغنى أن الأتراك بعد أن قابلوا هذا الطلب بالازدراء ، أرسلوا بسفنهم وجنودهم — كما تعلمون — إلى دمياط ، فهزمهم الفرنسيون شر هزيمة . فقال محمود : نعم ياسيدى إن كارثتنا بأصدقائنا أنكى من كارثتنا بالفرنسيين . فاستمر الشيخ وقال :

— ولكن الفرنسيين — على الرغم من انتصارهم — ألحوا فى طلب الصلح من العثمانيين . وقد علمت أن معاهدة وضعت شروطها باتفاق الفرنسيين والترك ، والإنجليز والروس . وأن خير ما فى شروطها أن يخرج الفرنسيون من مصر ، وأن يؤمن سفر الجيش الفرنسى الذى يبحر من مصر بأسلحته وأمتعته إلى فرنسا . فقال محمود :

— يا فرج الله ! وقال نيكلسون وهو يهز رأسه هزة نفى واستنكار :

— يخرج الجيش الفرنسى آمناً بعدده وآلاته ، ليشعل نار الحرب من جديد على إنجلترا. ما أظن إنجلترا ترضى بهذا . فقال الشيخ الجبرتى :

— إن « سدنى اسمث » أمضى هذه الشروط .

— ما أظن . وهنا قال محمود لنيكلسون : يا سيدى إذا

أرادت إنجلترا أن تمزق جيش فرنسا فلتخرجه من مصر أولا ، ثم تمزقه فى أى مكان آخر !

ـ أتمنى يا محمود أن يحقق الله ما تريد ، فقد نزل بمصر من الويلات ما يدك الجبال ، وإذا لم توافق إنجلترا على هذه المعاهدة ، فستكون الكارثة أفدح والبلاء أعظم ، ولكنى أعرف سياسة إنجلترا ، وقليلا ما تكذبنى ظنونى .

وصدقت الأيام ظنون نيكلسون ، وأبت إنجلترا أن توافق على المعاهدة فنقضها الفرنسيون وبرز « كليبر» بجيوشه لمحاربة العثمانيين عندما بلغت جيوشهم «عين شمس » .

عندئذ اجتمع عدد عظيم من المتآمرين بدار السيد عمر مكرم ، وكان بين الجمع الشيخ السادات ، والسيد أحمد المحروقى ، والشيخ الجوهرى ، ونيكلسون ومحمود العسال . وبعد أن طال الاجتماع وزاد اللغط والجدال ، دخل الحاج مصطفى البشتيلى زعيم الثوار ببولاق فقال : إن العثمانيين دخلوا القاهرة وانتصروا على الفرنسيين فى موقعة عين شمس . فصاح محمود العسال .

يجب أن نقضى على الحامية الفرنسية الباقية بالقاهرة ، وألا نبقى على أحد منهم ، فصمم الجميع على الجهاد ، وأرسلوا المنادين يدعون الناس إلى إقامة المتارس وحفر الخنادق ، وبعثوا البعوث فى شمال مصر وجنوبها لبث روح المقاومة

والعصيان فى كل مكان . وزاد فى حماسة المصريين دخول ناصف باشا قائد جيش العثمانيين إلى القاهرة ، وحوله عدد من كبار قواد المماليك . وكان من أشد الناس نهوضاً بالأمر وتعصباً له ، أعرابى ملثم ، أخذ يعدو بجواده بين أحياء القاهرة محرضاً مشجعاً داعياً إلى الموت فى سبيل الله والوطن.

ذهب نيكلسون ومحمود إلى دارهما بعد أن انفض الاجتماع ، وقد هالهما ما رأيا وسمعا ، وتوجسا خيفة من عواقب الأمر ، وخشيا أن تبوخ الثورة كما باخ غيرها ، وتعود مصر إلى الأسر المهين .

قابلتهما لورا مذعورة وقالت : ما هذا يا محمود ؟ إنى رأيت من النافذة رجال الحى جميعاً يتسلحون للقتال ، وشهدت فارساً أعرابيًّا يدعوهم إلى الجهاد ، ويحثهم على قتال الفرنسيين !!

ــ هذه الثورة يالورا ، وهى آخر سهم فى الكنانة ، فإذا أخمدت فقدنا كل شىء .

ــ لن تخمد ، وليست هى آخر سهم فى الكنانة ، إن الشجاع دائماً يخلق من اليأس أملا ، لأن اليأس فيه معنى الموت ، ولأن فى الشجاعة معنى الحياة . ادخلا وأخبرانى بكل شىء ، فقال نيكلسون .

ــ إن الأمة أجمعت على الجهاد يا فتاتى ، وإن الفرصة مواتية ، فلم يبق من جنود الفرنسيين عدد يؤبه له ، أو يستطيع

الصمود أمام الكثرة والتضحية .

ـ هذا صحيح يا أبى . ثم عادت إليها غريزتها النسوية ، وما تشعر به المرأة من الخوف والإشفاق على من تحب ، فقالت : وهل تحارب يا محمود ؟

ـ سأكون فى أول الصفوف ، وإذا بترت يمينى انتقل السيف إلى شمالى . إننى يا لورا كلما فكرت فى أنك من أمة عزيزة مهيبة الجانب لا يداس لها عرين ، ولمحت ما فيك من الاعتزاز بقومك الذين لا يحوم بخيال غاصب أن يقترب من شواطئهم ، أدركنى ما يشبه الحسد ، ووددت أن أفخر ببلادى وقومى كما تفخرين .

ـ ستفخر يامحمود ببلادك ، وهى خالصة لأمتك لا يتحكم فيها غاصب ، وإذا لم يتنفس لك العمر ، فسيفخر التاريخ بك وبأمثالك المجاهدين . وأنت يا أبى ماذا سيكون شأنك ؟

ـ سأكون بجانب محمود ، وسأجاهد فى سبيل مصر جهاداً يحسدنى عليه أبناؤها .

ثم قامت لتعد الطعام ، وهى فى خوف ووجل وإشفاق ، وتمنت لو ظفرت بمحمود وبحب محمود فى بلد هادئ أمين ! وصورت لها الهواجس صوراً مخيفة ملأت نفسها رعباً . إن محموداً مقدام مخاطر ، وهو إذا حمى وطيس الحرب أدركه جنونها فقذف بنفسه للموت سمحاً كريماً . ولكن

هذا الخلق هو الذى تحبه فيه ، وهو الذى تعشقه من أجله ، فكيف تلوده عما تحب ؟ ولو أنه أطاعها لعاد فى عينيها فسلا مسلوب الرجولة هزيلا .

وأشرقت شمس اليوم الحادى والعشرين من مارس سنة ١٨٠٠ على مصر كلها أشأم شروق وأنحسه ، وكأن حمرتها عند البزوغ دماء الشهداء الذين كتب عليهم أن تحصدهم المدافع وتنوشهم السيوف البواتر ، وكأن أشعتها وهى تضطرب فى الأفق ، أسباب المنية امتدت فجمعت أبناء مصر المساكين فى شباكها .

خرج نيكلسون ومحمود فى هذا الصباح ، وودعتهما لورا والهة حزينة ، تظهر الجلد بقدر ما تستطيع ، فإذا غلبها الدمع قهقهت لتزعم أن دموع الحزن من دمعات السرور . خرجا فوجدا القاهرة فى هرج وحركة دائبة ، واستعداد للوثوب واستخفاف بالموت ، وخلت البيوت من من قطانها ، واختلط الحابل بالنابل ، وتسلح كل من يستطيع بما يستطيع ، فنهم من كان يحمل سيفاً ، ومنهم من كان يحمل بندقية ، ومنهم من كان يلوح بعصا غليظة فى الفضاء ومنهم من تسلح بسكين ماضية . أما الأطفال والنساء : فلئوا حجورهم بالأحجار وساروا خلف الشجعان المجاهدين، يتنغمون بأناشيد نظمتها الفطرة الساذجة ، فأذكت من نار

الحماسة ما تعجز عنه بدائع الأشعار . وقد قسموا أنفسهم فرقاً ، وأقاموا المتارس فى جميع أحياء القاهرة وبولاق ، ووثب بعض الثوار وفى مقدمتهم نيكلسون ومحمود على معسكر الفرنسيين فى ميدان الأزبكية كما تثب أمواج البحر الخضم على الشاطىء لتتكسر ثم تعود . وكان الفرنسيون — وقد امتلكوا القلاع والتلال حول المدينة — يصبون عليها وابلا لا ينقطع من النيران والقذائف ، يدك أرجاءها دكا ، وينشر الذعر والموت فى كل مكان . وشمر الترك والمماليك عن سواعدهم وصالوا فى المدينة وجالوا ، وأخذوا يرسلون النجدات . ويقوون العزائم . وبينما كان نيكلسون ومحمود عائدين إلى دارهما فى أصيل ذلك اليوم ، إذ لمح محمود الأعرابى الملثم ، وهو يخوض بفرسه فى جحيم المعامع فالتفت إليه محمود — وكانت حماسته قد حسرت من لثامه — فإذا هو زوج خالته السيد محمد البواب ! فتملكه الدهش ووثب حتى أخذ بعنان فرسه وصاح : خالى ! أنت هنا ؟ أنت بالقاهرة ؟ إنى لم أدع ركناً فى المدينة إلا بحثت عنك فيه . ثم حبسه البكاء عن الكلام ، فوثب السيد البواب إليه وعانقه ، وارتفع البكاء والنشيج . ولغة الوجدان دائماً أفصح من لغة اللسان . حتى إذا هدأت نفساهما قليلا ، قال محمود فى صوت خافت حزين :

ــ لم تسطع البقاء فى رشيد يا خالى ؟

ــ إن حياة الكريم ليست نفساً يذهب ويجىء ، وليست طعاماً وشراباً ، وإنما هى شرف وكرامة ، فإذا امتهن الشرف وضاعت الكرامة كان الكريم بين إحدى خلتين : إما أن يموت ؛ وإما أن ينتقم . وقد جئت إلى القاهرة لأنتقم ، ولأغسل غيظى بدماء أعدائى .

ــ ذلك ما أفعله أنا الآن ، وهذا ما سأموت فى سبيله . وكيف جئت يا خالى ؟

ــ غادرت رشيد ومعى مقدار من المال ، فسافرت إلى بادية البحيرة . وكان لى بين عرب « المنادى » صديق قديم ، فنزلت بخيامه وأخبرته بفاجعتى ، فأظهر لى من حسن المواساة وكرم الضيافة ما هو خليق بالعربى الكريم ، ثم غيرت زيى عنده ، ورحلت مع ثلاثة من أتباعه ، حتى وصلنا إلى القاهرة فنزلت بخان جعفر بخطة سيدنا الحسين ، وعزمت على إخفاء أمرى والجهاد فى سبيل الله ، حتى ألقى الله .

ــ لا يا خالى ، لا بد أن تنزل عندنا . ثم أشار إلى نيكلسون وقال : هذا صديقى وأخى فى الجهاد الحاج محمد السوسى . انظر إليه فهل تعرفه ؟ فحدق فيه السيد البواب طويلا وقال مردداً : أعرفه ... ؟ أعرفه . . ؟ وكيف لا أعرفه ؟ إنه الخواجة نيكلسون تاجر الصوف والحرير برشيد ، ثم

طوقه بذراعيه فى شوق وحب صادقين وهو يردد : كيف حالك يا خواجة نيكلسون ؟ أو إن شئت : كيف حال الحاج محمد السوسى ؟ ما كدت أعرفك لولا أن نبهنى محمود ، لقد تغيرت كثيراً يا نيكلسون فى زمان تغير فيه كل شىء .

ثم الح عليه محمود أن ينزل معه بدار نيكلسون فقال : دعنى يا بنى فإنى أستأنس بوحشتى ، وأرتاح إلى وحدتى ، ثم أنساب كما ينساب السهم فلم يريا إلا غبار جواده . وعاد نيكلسون ومحمود إلى دارهما ، فأخبرا لورا بحوادث اليوم . وكان نيكلسون حزيناً شديد التطير ، وأخبرها محمود بما كان من لقاء زوج خالته ، وبما كان يظهر عليه من الحزن وحب الانتقام ، فعجبت لورا وقالت : السيد محمد البواب أصبح فارساً مغواراً ؟ ! هكذا تخلق الحوادث الرجال ! ! وهنا قال نيكلسون لمحمود : أرأيت اليوم كيف يخدع المماليك الشعب المصرى الأعزل المسكين ؟

ــ كيف ؟ !

ــ زعموا أولا أن الجيش الفرنسى انهزم بعين شمس ، وكان كل ذلك كذباً وزوراً ، ثم إن نصوحاً باشا كان يخدع الناس اليوم ، حينما أرسل المنادين فى أرجاء البلد يصيحون بأن يوسف باشا الصدر الأعظم للدولة العثمانية ، سيصل

غداً أو بعد غد بجيشه اللهام ، ليستأصل شأفة الفرنسيين . والصدر الأعظم — كما أعلم علم اليقين — فر بجيشه إلى الصالحية ولن يعود .

— تباً لهم من قتلة سفاكين ! ! والآن وقد لعق الشعب لجامه ، وأطارت الثورة عقله ، وأصبح من العسير أن يكبح ، ماذا ترى يا نيكلسون ؟

— أرى أن العاقبة غير واضحة ، وأنه يجب علينا ألا نجبن أو نعتزل القتال ، فلعل الله يحدث بعد ذلك أمراً .

وهكذا توالت الأيام والثورة مشتعلة الأوار ، وفى كل يوم يضعف المجاهدون ، ويقوى الفرنسيون ، واستمرت المدافع تصب حميمها على المنازل ليلا ونهاراً ، فهجر الناس بيوتهم ، وتهدم أكثر من نصف المدينة ، وبذل المصريون جهد اليائسين : فأنشئوا معملا للبارود فى بيت قائد أغا بالخرنفش ، ومصنعاً لإصلاح الأسلحة وصب المدافع ، وجمعوا كل ما استطاعوا الحصول عليه من حديد ونحاس وخشب ، ولكن كل ذلك لم يغن فتيلا أمام قوة الفرنسيين الجبارة ، ومما زاد الحال سوءاً حصار المدينة وامتناع وصول الأقوات إليها ، فجاع الناس ، وانتشرت الأمراض ، وخرجت النساء مولولات صاخبات باكيات ، يصورن الهزيمة والذعر ، والمسغبة وضيعة الأمل .

وبينما كان الفرنسيون فى اليوم الثانى عشر من إبريل يحاولون احتلال كوم أبى الريش بالفجالة ، بقيادة الجنرال روبان ، إذ رأى محمود العسال زوج خالته فوق جواده وهو يصول بين الفرنسيين غير هياب ، ورصاص بنادقهم يبنى فوقه ظلة من الموت ، فذعر محمود وتقدم لإنقاذه ، ولكنه قبل أن يصل إليه رآه يترنح فوق فرسه ، وقد أصابته رصاصة فى العنق ، فأسرع إليه فاختطفه من سرجه ؛ وحمله فوق كتفيه . وما كاد يسير قليلا حتى أصابته رصاصة فى فخذه ، فسقط على الأرض بحمله . وفى هذه اللحظة وثب نيكلسون فجر الرجلين إلى مكان أمين . وكان محمود شديد التألم من جرحه ، أما السيد محمد البواب فكان يجود بأنفاس قصار ، ويردد كلمات أقصر من أنفاسه ويقول : الحمد لله ! قتلت خمسة هذا اليوم ! شفيت نفسى ، وأطفأت غلى ، ما أهون الحياة فى سبيل الشرف ! ثم فاضت روحه شهيداً كريماً ، فاكترى نيكلسون حمارين واتجه بالرجلين نحو داره ، فلقيته لورا مذعورة ، وجاء بعض الجيران فحملوا الجريح والقتيل ، وكانت الشمس قد غابت فى الأفق ، فشمل القاهرة ظلام دامس ، يزعجه قصف المدافع ، وندب الثكالى وأنات الجرحى ، وصياح الأطفال الخائفين الجائعين .

١٣

جهز الميت الشهيد ودفن فى الصباح ، وأخذت لورا تبذل ما يستطاع فى علاج محمود وتمريضه ، والهم يكاد يعصف بفؤادها . ودهمت محموداً الحمى ثلاثة أيام لم تغمض فيها جفناً ، ولم تحبس دمع عين ، وأراد أبوها أن يتناوب معها السهر عليه ، فأبت وقالت فى سخرية مصنوعة : ما أكثر طمعكم أيها الرجال ! ! لم تكتفوا بمنع المرأة من الجهاد فى ميدان القتال ، حتى جئتم تشاركونها فى نصيبها القليل من العناية بالجرحى ! دعنى يا أبى فإن للمرأة صبراً ليس للرجال . ثم ضحكت وقالت : وإن للمرأة قوة روحانية تبعث فى المريض الأمل وحب الحياة .

أفاق محمود من الحمى ضعيفاً هزيلا ، ورأى من رعاية لورا له وحدبها عليه ، وتفرغها لخدمته ، وافتنانها فى تسليته ، والترويح عنه — ما ملأ قلبه حباً لها ، وإعجاباً بخلقها . ثم نظر فرأى جمالا يأخذ باللب ، ويملأ العين والقلب ، وقد كان إليها قبل ذلك دائم الحنين . ولم يكن يحول بينه وبين مصارحتها بحبه ، إلا كبر موهوم ، وعزيمة كاذبة ، هى أن يصون قلبه لحب زبيدة وألا يزحمه بحب جديد .

ولكن أين زبيدة الآن ؟ وأين الثريا من يد المتناول ؟ إنها زوجة ؛ إنه فقدها إلى الأبد . إنها بعد أن تزوجت بالأجنبي أصبحت لا تصلح له ولا يصلح لها .. وإن التشبث بحبها خيال شعرى ، لا يستطيع أن يثبت أمام قسوة الحقائق . . .

جالت كل هذه الخواطر بنفس محمود وهو ينظر إلى لورا ، وقد كانت تغسل جرحه وتعد له الأربطة واللفائف فقال :

ــ لقد أزعجتك يا لورا وأتعبتك .

ــ أنت دائماً رجل متعب يا محمود ، وإذا أردت أن تريحني فباعد بينك وبين الخطر .

ــ وهل يسوءك أن يدفع المرء عن وطنه ؟

ــ لا . وهذا خير ما أحبه فيك ، ولكن يسوءني أن يمسك سوء .

ــ ولماذا ؟

ــ هكذا أنت دائماً كالأطفال ، تحب أن تعرف كل شيء .

ــ أتخافين عليّ حقّاً ؟

ــ إنني أخاف دائماً على الأبطال .

ــ وتحبينهم يالورا ؟ فثارت عواطفها ، وطفرت من عينيها دمعتان ، وأسرعت فقالت : وأحبهم .

ــ وإذا كانوا يحبونك يا لورا ويقدمون قلوبهم بين

يديك ، فهل تحبينهم حبًّا آخر؟ ؟

ـــ وهل الحب أنواع ؟

ـــ الحب أنواع وأشكال : حب الرجل للوطن ، وحب الأم لولدها ، وحب الجندى لقائده ، وحب الفتى للفتاة .

فتلعثمت لورا وقالت : وما شأنك بهذا الحب الأخير ؟

ـــ هو حبي لك يا لورا الذى فيه حياتى وشرفى ، وفيه نعيمى وجنتى . ثم مد إليها ذراعيه وجلا مستعطفاً ، فسقطت بينهما باكية وهى تتمتم : أحبك يا محمود ، وأحبك من حين أن رأيتك ، وأحبك لأنى أرى فيك كل ما يصوره خيالى للرجل الكامل ، من بطولة وكرم ودين . أحبك ، أحبك .

فقبلها محمود بين عينيها وقال وهو يلهث : وهل تقبليننى زوجاً ؟

ـــ ذلك كان أملى فى الحياة .

ثم أخذا فى الحديث والضحك والقبل ، وبعد قليل دخل نيكلسون يسأل عن المريض ، فصاحت لورا : احذر يا أبى أن تزعج زوجى بكثرة الأسئلة ؛ فبهت نيكلسون وأخذ يتأمل فيهما مشدوهاً ، وهما يضحكان . فقال محمود : نعم زوجها بكتاب الله وسنة رسوله . ووثب نيكلسون على لورا يقبلها ويقول : لك تهنئاتى ودعواتى يا لورا . نعم الصهر

ونعم الكفء محمود . هذا أسعد يوم فى حياتى . كان هذا الخاطر السعيد يطوف بخيالى فأظنه بعيداً ، وكنت أعتقد أن ابنتى لورا لا تصلح إلا لمحمود .

ثم اتجه نحو كرسى ليجلس عليه ، فصاح به محمود لا تجلس يارجل ! الآن تجد جارنا الشيخ محمداً الصعيدى فى داره ، وتستطيع أن تتفضل بدعوته ليعقد العقد . فخرج نيكلسون غير متباطىء وأحضر الشيخ الصعيدى وتم العقد ، وأصبح محمود العسال ولورا نيكلسون زوجاً وزوجة .

ومضى على الثورة ثلاثين يوماً ، وهى تحصد الأرواح حصداً ، وتدمر كل شىء تدميراً . ولما اشتد الخطب ، وعظم الهول ، وبلغت القلوب الحناجر ، قام وفد من العلماء وألح على ناصف باشا وإبراهيم بك وغيرهما أن يضعا حداً لهذه الفاجعة . وتم إبرام الاتفاق بين الترك والفرنسيين فى الحادى والعشرين من إبريل سنة ١٨٠٠ على أن يغادر العثمانيون مصر ، وعلى أن يصدر كليبر عفواً عاماً عن جميع سكان القاهرة . وعاد النفوذ للفرنسيين كما كان وزادهم الظفر تمكناً وسلطاناً .

وفى هذه الأثناء تماثل محمود وعادت إليه قوته ، وبينما كان فى منزله فى أحد الأيام ، إذ سمع طرقاً على بابه ، فلما فتح رأى سروراً خادم زبيدة فدهش لرؤيته ، واستقبله

استقبال الصديق ، وشد على يديه فى شوق وترحيب وقال : أهلا بسرور . ما كنت أترقب أن أراك بالقاهرة ! كيف حال أهل رشيد ؟ ثم تردد قليلا وقال : وكيف حال بنت خالتى زبيدة ؟

ـ كلنا بخير يا سيدى والحمد لله على سلامتك . لقد انتقل الجنرال مينو من رشيد وعين حاكماً للقاهرة ، وجئنا منذ عشرة أيام ، وجاءت معنا سيدتى نفيسة ، وسكنا بالقلعة . وقد أحبت سيدتى زبيدة وسيدتى نفيسة أن ترياك ، فسألنا عن منزلك وجئنا ، وهما الآن بالحارة تنتظران .

فلما سمع محمود ذلك أسرع إلى الباب وثباً ، وحينما وصل إلى الحارة رأى زبيدة وأمها ، فحياهما فى تكريم وحفاوة وشوق ، وقادهما إلى مسكنه . وأقبلت لورا فمدت ذراعيها لزبيدة وملأت وجهها بالقبل ، ثم مالت على يد السيدة نفيسة فقبلتها وقالت : من كان يظن أن يجمع الله الشتيتين بعد أن حالت بينهما الخطوب والأحداث ؟ فالحمدلله على السلامة يا زبيدة ، شرفت يا سيدتى نفيسة . لقد أراد الله بكما خيراً أن كنتما بعيدتين عن القاهرة فى أثناء الثورة لقد قضينا ثلاثين يوماً كنا نموت فيها ونحيا فى كل يوم ألف مرة . فقالت زبيدة فى ضجر وألم : وهل نجت رشيد من الثورة ؟ إن جميع البلاد المصرية كانت شعلة من

النيران . فأشارت لورا إلى محمود وقالت : لقد كدنا نفقد فى الثورة هذا الولد المدلل المخاطر . فنظرت إليه زبيدة ، والشوق يكاد يفضحها ، وقالت : لقد خلق محمود جريئاً لا يبالى بالأخطار ، ولا بد له من يد حكيمة حازمة تكبح جماحه . فضحك محمود وقال : إنى سأتعب يدك كثيراً يا لورا ، لأننى فرس جموح . فهال زبيدة ما تسمع ، وراعها أن ترى تلك السهولة فى الحديث بين لورا ومحمود وقالت : أظن أنه يجدر بك يامحمود أن تذهب إلى رشيد بعد هذه الغربة الطويلة والجهاد الممض ، فإن أمك تتحرق لرؤيتك.

فأجابت لورا : إنه أقسم ألا نعود إلى رشيد إلا بعد أن يغادر الفرنسيون أرض مصر . فقالت نفيسة : أتنوين العودة إلى رشيد يالورا ؟ فأطرقت لورا فى حياء وقالت : أنا سأكون دائماً حيث يكون محمود . وهنا أسرع محمود فقال : لقد نسيت أن أخبركما أننا أصبحنا زوجين ، فقالت نفيسة وقد دهمها الخبر : مبارك . مبارك . أرجو أن يكون زواجاً سعيداً . ثم تنهدت وبلعت ريقها ، واحتالت على ابتسامة خفيفة تخفى بها ما أصابها من ألم وحسرة . أما زبيدة : فقد أخذتها عاصفة من الذهول والحزن والغيرة ، فأطرقت واجمة كأنها كانت تسمع صحيفة الحكم عليها بالموت ، إنها تحب ابن خالتها حباً يقهر كل حب ، وتهيم به هياماً

يعصف بكل هيام ، وهو لها دون غيرها ، وهو تمثال غرامها الطاهر ، فكيف تمتد إليه يد ؟ وكيف تجرؤ امرأة أخرى على أن تنعم بحبه ؟ ولكنها هى التى نبذت هذا الحب ، وأغلقت بابها دون ذلك الهيام ، وحطمت ذلك التمثال بيديها ، كل ذلك فى سبيل أمل موهوم وأمنية كاذبة . . . إن لورا لم تعمل شيئاً ، وإن محموداً لم يعمل شيئاً ، وهى وحدها التى نفسها تلوم . هى وحدها التى دمرت سعادتها ، وهى وحدها التى انتزعت قلبها من صدرها وقذفت به فى التراب .

رفعت زبيدة رأسها بعد لحظات وقالت : مبارك يامحمود . ثم أخذت تخوض فى حديث آخر فقالت : إننا جئنا إلى القاهرة وأحببنا أن نراك فأرشدنا ابن‌عمك حسين إلى منزلك . وهنا قالت نفيسة : إن زوجها الجنرال لا يقبل زيارة أحد من أقاربها . فقال محمود : إن كل سعادتنا أن نعلم أن زبيدة هانئة سعيدة . فقالت زبيدة : أما السعادة والهناء فبيني وبينهما سدود وأسوار ، ولكنى راضية بالقضاء خيره وشره . وقد علمتنى الأيام ألا أجرؤ على تغيير القدر ، وألا أفسد حياتى بآرائى وآمالى . وهنا تنهدت نفيسة طويلا وقالت : هل عثرت يا محمود على مكان خالك ؟ فأطرق ملياً وانساب الدمع من عينيه غزيراً وقال : أعظم الله أجرك فيه يا خالتى ، فقد نال شرف الشهادة ، ومات فى ميدان

الجهاد شجاعاً كريماً ، وانتقل إلى جوار ربه راضياً مرضيا . وما كاد يتم قوله حتى ارتفع البكاء والعويل ، وكادت نفيسة يغمى عليها من هول الخبر ، وأخذت زبيدة تبكى وتعدد مآثر أبيها ونبله وشرفه ، وتصيح كما يصيح الهاذى المحموم : لقد قتلته ! ولما هدأت الأصوات قليلا رفعت نفيسة رأسها وقالت : هلم يا زبيدة . إن المرء لا يستطيع أن يمحو ما كتبه القدر . ثم ودعتا لورا ومحموداً وانصرفتا .

١٤

فى اليوم الثانى والعشرين من إبريل سنة ١٨٠٠ استيقظت القاهرة على موكب حافل ، أراد به كليبر أن يظهر عظمة ملكه وقوة بطشه ، وأن يحتفل بالنصر المؤزر الحاسم .

فخرج من داره بالأزبكية فى جمع خضم من مشاته وفرسانه ، وكان الجنرال يمتطى جواداً أشهب ، وقد بدا فى وجهه العبوس والأنفة ، وامتلأت خياشيمه عظمة واعتداداً .

فى هذا اليوم نفسه — والجنرال فى قمة مجده — كان يجلس بفناء المسجد الأقصى بمدينة القدس ، شاب فى الرابعة والعشرين ، نحيل الجسم شاحب اللون ، حائر العينين مستطيل الوجه ، أنافى ، رث الثياب ، يكثر من هز رأسه

فى حزن واضطراب . كان طالب علم ، وكان فقير الحال ، وبينما كانت الخواطر تتواثب إلى نفسه ، رمى ببصره فرأى طائفة من الجنود العثمانية تتجه إلى مسجد الصخرة ، وقد نهكهم التعب ، وأكلهم السغب ، وتمزقت ثيابهم وجللها الغبار ، فهاله أن يرى جنود الإسلام على تلك الحال ، وحز فى قلبه أن يئول أمر حماة الدين إلى ذلك الخور والصغار . رأى تلك الطائفة من الجنود فقام يسعى إليهم ، وما كاد يقترب منهم قليلا حتى رأى بينهم ضابطاً كان يعرفه بحلب ، هو أحمد أغا . فحياه فى شوق وحفاوة ، ثم قال : يبدو عليك وعلى أصحابك يا سيدى أنكم قدمتم من سفر طويل .

ــ لم يكن السفر طويلا يا سليمان ، ولكن . . .

ــ وماذا وراء (لكن) هذه ؟

ــ وراءها الخزى والهزيمة .

فبادره سليمان سائلا : كيف ؟ !

ــ هلم يا صاحبى نجلس إلى جانب هذا الجدار ، فقد يطول بنا الحديث ، وبعد أن جلسا قال أحمد أغا : خبرنى أولا عن شأنك أنت ، فإن آخر عهدى بك كان بمدينة حلب منذ أربع سنين .

ــ نعم كان ذلك منذ أربع سنين ، ولن أنسى كريم عنايتك بأبى وحدبك عليه ، ومنذ ذلك الحين نزعت نفسى

إلى أن أكون جنديا ، وكان الجهاد فى سبيل الله أقصى ما تهفو إليه آمالى ، فطالما أيقظتنى من غفوتى أصوات الجماهير ، وهى تصيح : الله أكبر ! الله أكبر ! لقد أنقذ سليمان الحلبى الإسلام من أعدائه ، وروّى سيفه من دمائهم ! فكنت إذا دهمتنى هذه النوبة ، أجلس فى ظلام الليل الدامس حزيناً باكياً ، أتلفت فلا أجد سيفاً ولا رمحاً ، وأتسمع فلا أسمع إلا سكون الليل وهدوءه . ثم أحاول أن أهز ذراعى لأستأنس بما قد يكون بهما من قوة على الجهاد ، فلا أهز إلا ذراعين ناحلتين ، لا تقويان على قتل ذبابة ، فيزيد بكائى ويطول أنينى ، حتّى إذا زاد ما بى ، وطال الأمر على ، وخفت أن أوصم بالجنون ، ذهبت إلى إبراهيم باشا والى حلب . . .

— ويل له من ظالم غاشم ! !

— دعك من هذا فلسنا الآن بصدد الحديث عن الناس . ذهبت إليه فى قصره ، فسخرت فى نفسى مما رأيت من جنود وأعوان . ، وخدم وخصيان ، وأبهة كاذبة وعظمة جوفاء ، يعرف هؤلاء الأتراك كيف يصطنعونها بإطالة الشوارب وكثرة ما ينتطقون به من خناجر ، ويتنكبونه من بنادق . وبذلك الصوت الخشن المفزع ، الذى يظنون أنه يغنى عن جرأة القلوب وصدق العزائم ، فلما حاولت أن أجاوز الباب ، تواثب على الحراس والأجناد من كل

مكان فى عجب ودهشة ، وركض الفرسان من مواقفهم ، وأقسم لوأنهم دعوا ليوم كريهة ،ما كانت لهم هذه الوثبات ولا تلك الحماسة المتأججة . نظروا إلى مشدوهين ، كيف جرؤت؟! وكيف يصح لفتى فقير ممزق الثياب من أبناء العرب ، أن يتحدى ذلك الملك الذى لا ينال ، ويطأ بقدميه فناء تلك العظمة الشماء ؟ ؟ وقفت أنظر فى وجوههم ، وفى لمحات وجهى شيء غير قليل من السخرية ، فصاح بى كبيرهم قائلا فى اشمئزاز : ماذا تبغى يا عربى ؟ ؛ قلت : أريد أن أقابل الوالى . فابتسم فى صلف وقال : أنت تقابل الوالى ؟ ؟ ! ألا تدرى أن ذلك ممنوع ؟ قلت : الذى أعرفه أنه الوالى ، وأنه يجب عليه أن يقابل من هم فى ولايته . قال : وماذا تريد منه ؟ قلت : ذلك ما أوثر أن أحدثه به بنفسى . وكان الباشا حينما سمع ضجيج الحراس أطل من نافذة غرفته ، وسأل عن الخبر ، فلما علم بأمرى دعانى إليه ، وقابلنى عابساً ، ثم قال بصوت يشبه الزجر : ماذا تريد يافتى ؟ ؟ ! قلت : أريد أن ألحق بالجندية لأجاهد فى سبيل الله ، فضحك حتى سقطت عمامته ، وجلس بعد أن كان قائماً . ولما التقط أنفاسه ، قال فى رفق يتعمده الناس عند مخاطبة المجانين : تريد أن تجاهد فى سبيل الله ؟ ! آه . . آه . . قلت لى . . هذا شيء عظيم !

أنت رجل لو نفخت فيه الآن نفخة لطار إلى الغرفة التى أمامى . من الذى وضع فى رأسك فكرة الجهاد هذه ؟ ! الجهاد يا بنى منزلة لا ينال شرفها إلا الرجل القوى الضخم ، ذو المتن الأزل والساعد المفتول ، ولو فتحنا باب الجهاد لأمثالك لأنشأنا جيشاً جراراً للهزيمة والعار .

قال كل ذلك وأنا واجم مفكر ، وقد تطلعت لأجد حولى خنجراً أغمده فى صدره لأستريح من زهوه وعتوه ، فلم أجد . ثم رفعت رأسى إليه فى كبر واعتداد وقلت : هون عليك يا سيدى . إن ميدان الجهاد أوسع من ميدان القتال .

ـ وماذا فعلت بعد ذلك ؟

ـ خرجت من عنده ، وعزمت وأنا فى الطريق على أن أتجرد لدراسة علوم التصوف والتاريخ ، لأستبين منها خير سبيل للجهاد . فطلبت من أبى أن يعيننى على الدراسة بالجامع الأزهر ، فزودنى بما أردت وذهبت إلى مصر ، وقضيت بالأزهر ثلاث سنوات ، قرأت فيها على كثير من علمائه . ولما دخل الفرنسيون مصر ، ورأيتهم يصبون على الأزهر حاصباً من قذائفهم ، تحركت فى نفسى عوامل الانتقام وعزمت على أن أقتل كبيرهم « بونابارت » ولكنى جبنت ، واجتذب الشيطان السكين من يمينى فلم أجد لى عزماً ، عندئذ غادرت مصر وأقمت بالقدس.

والآن حدثني عن نفسك ، فقد علمت طوية أمري .

فزفر أحمد أغا وقال : إن حديثي لن يطول وإن كان ألمي طويلا : قمنا من غزة لغزو الفرنسيين بمصر بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضياء ، وحاصرنا قلعة (العريش) حتى استولينا عليها بعد جهد ، وعندئذ شرع الفرنسيون يفاوضوننا فى الصلح على أن ينزحوا عن البلاد . وسمعت من بعض الضباط أن المعاهدة تمت وأنها وقع عليها منا ومنهم ، ولكنى علمت بعد ذلك أن الإنجليز لم يرضوا عن هذه المعاهدة ، وأن سارى عسكر كليبر استأنف القتال . فالتقى بجيشنا عند عين شمس فانهار الجيش أمامه كما ينهار الطلل البالى ، وتقهقرنا إلى بلبيس ، ثم إلى الصالحية ، وتفرق جنودنا بدداً ، وهاموا على وجوههم فى الصحراء أذلاء مهزومين حتى وصلت اليوم مع طائفة منهم إلى القدس .

ثم جلس على ركبتيه وقال : سليمان ! ألا تستطيع أن تعمل عملا عجز عنه الجيش ؟ !

ـ هذه كانت آمالى منذ سنوات ، ولكن النفس الإنسانية تتبلد باليأس وتثبط العزائم .

ـ إن نفسك فوق النفوس ، وهى أبعد من أن تنالها يد اليأس . إن الإسلام يدعوك لنصرته ، وإذا ضاعت مصر ضاع الحجاز وانقطع السبيل إلى بيت الله ، وضريح رسول الله .

ـ آه يا أحمد !! إن مما يؤلم حقا أن تريد فلا تقدر .

وهنا خاف أحمد أن تفلت الفريسة من يديه ، فاتخذ منهجاً آخر في الإغراء وقال : ألعلك تخاف الموت ؟ ! ما كنت أظن أن للخوف عليك سلطاناً . ما هذا ؟ ! أين تلك النفس الوثابة ، وأين التهافت على الجهاد ، وأين تلك النفحات الربانية ؟ ! لقد عاد الضياء ظلاماً ، والعزم أوهاماً ، والسيف الصارم كهاماً ! ! وأصبحت مخلوقاً أرضياً حقيراً ، بعد أن كنت تسبح في سماء كلها إشراق ونور .

فتألقت عينا سليمان ، وتجمعت أسارير وجهه وتقبضت شفتاه شأن العازم المصمم وقال : وماذا أعمل يا أحمد ؟ ؟

ـ تأخذ هذا الكيس وفيه مائة محبوب ذهباً ، وتذهب اليوم إلى حاكم غزة ، ليذلل لك سبيل السفر إلى مصر .

ثم أخرج خنجره من منطقته وقال : وإذا بلغت مصر فأغمد هذا الخنجر في صدر كليبر قائد الجيش الفرنسي .

فقذف سليمان بالكيس في وجه صاحبه ، وقال وهو ينتفض إن المجاهد في سبيل الله لا يحتاج إلى مال . حسبي هذا الخنجر وسأهز به الدنيا هزاً ، وسأتركك به فيها دوياً .

سافر سليمان الحلبي إلى غزة ، وبقي بها أياماً ينتظر قيام قافلة للتجارة تقصد إلى مصر ، حتى إذا قامت صحبها ، فبلغ القاهرة بعد ستة أيام . وكان ذلك في اليوم الرابع

عشر من مايو ، وكان يعرف القاهرة من قبل ، فحمل خرجه واتجه صوب الأزهر ليقيم برواق الشاميين .

ولما ضاق بالأمر صدره أفشى بعض سره إلى بعض الطلبة من أصدقائه فسخروا منه ، وهزءوا به ، ورموه بالجنون . فزاد ذلك من غيظه وحفزه على التصميم . فخرج فى صباح اليوم الثالث عشر من شهر يونية إلى الجيزة ، يمشى مطرق الرأس مذعوراً ، كما يمشى الكلب المسعور ، باحثا عن كليبر فى كل مكان كما يبحث الصائد عن طريدته . فعلم بعد طول التسآل من نواتى سفينته ، أنه يتمشى فى كل مساء فى حديقة قصره بالأزبكية . فرجع إلى القاهرة وكان قد أظله الليل ، فحاول أن يصل إلى حديقة القصر فلم يستطع ، فقضى ليلته فى مسجد قريب . ولما أصبح تتبع خطوات الجنرال وسار فى إثره إلى « الروضة » ، ثم عاد خلفه إلى القاهرة ، واستطاع التسلل إلى الحديقة فكمن فيها خلف ساقية. وأخذ يتلو آيات من القرآن فى الجهاد وفى ثواب المجاهدين ، وما كاد يفتح عينيه حتى دخل كليبر — ومسيو « بروتان » المهندس — الحديقة ، فنهض سليمان واقترب من الجنرال فى ذل متصنع ، فظنه مستجدياً فلم يأبه له ، ولكن سليمان وثب عليه كما يثب النمر الجائع ، وطعنه بخنجره طعنة قاتلة فسقط مضرجاً بدمائه . وهم مسيو بروتان أن يتعقب القاتل ، فلما أمسك

به طعنه سليمان ست طعنات ، خر بعدها لليدين والفم ، ثم عاد إلى كليبر فطعنه ثلاث طعنات ليقضى على آخر مسكة من حياته ، ولم تحدثه نفسه بالفرار . ولكن غريزة حب البقاء دفعته إلى جدار فى الحديقة فاختفى عنده ، وجاء الحراس فرأوا قائدهم وقد أسلم الروح ، فهالهم الأمر ، وأقسموا على الانتقام من مصر وأهلها ، وأن يدكوا أركانها دكًّا . ونفخوا فى أبواقهم ليجمعوا شتات الجنود المنتشرين بالقاهرة ، واهتزت أرجاء المدينة وزلزلت للحادث الجلل .

١٥

كانت القاهرة يلفها غبش الظلام ، حينما انطلق جنود الفرنسيين فى أنحائها غاضبين مهددين بمحو القاهرة من صحيفة الوجود . وقد تسابقوا إلى القلاع والتلال ، وصوبوا مدافعهم نحو المدينة المسكينة ، واعتزموا أن يجعلوها نسفاً ، وألا يبقوا بها نفساً . ووصل الخبر المشئوم إلى السكان فهرعوا إلى ديارهم ليفروا من الموت إلى الموت ، وعلا الضجيج ، وصاح النساء من نوافذ المنازل مولولات ناعيات ، وبكى الأطفال مفزوعين لهذا الهول العظيم .

وكان نيكلسون ومحمود بقهوة بخطة سيدنا الحسين ،

فلما وصل إليهما الخبر بهتا وأخذهما أول الأمر ما يشبه الذهول ، ثم قال نيكلسون :

— من يكون القاتل يا ترى ؟

— يكون من يكون ، فلن تفلت مصر من أكبر نكبة فى تاريخها . وتكون النازلة أعظم إذا لم يعثروا على القاتل .

— ويل للقاهرة ثم ويل لها ! لقد أصبحت منذ دخل الفرنسيون غرضاً لا تخطئه السهام . هلم بنا إلى الدار فقد تركنا بها لورا وحيدة ، وأخاف أن يمسها سوء .

وبينما هما فى الطريق قابلهما السيد أحمد المحروقى ، وصاح بهما : لقد وجدوا القاتل . فسأله نيكلسون قائلا : وأين وجدوه ؟

— الحق أنه هو الذى أوجد نفسه ، فإنه لم يحاول الفرار ، ولم يغادر حديقة القصر . وقد علمت أنه طالب حلبى ، والفرنسيون يعتقدون أن وراء الأكمة ما وراءها .

فقال محمود : غداً يتبلج الصبح لذى عينين ، إن القاهرة فى هذه الليلة لن تنام ، وكيف ينام من تنصب له أشراك الحمام ؟ !

ثم انطلقا حتى بلغا دارهما ، فوجدا اورا لدى الباب والهة حزينة ، حتى إذا رأت محموداً سقطت بين ذراعيه ، وأخذت تبكى وتضحك فى آن . ثم اتجهت إلى أبيها وقالت : لقد قتلنى طول انتظاركما فى هذه الليلة

الليلاء ، وقد أصمت صفارات الفرنسيين أذنى وهم يجوسون خلال الطرق فى شبه جنون محموم . هل قتل كليبر حقاً ؟

فقال محمود : نعم قتل حقاً ، قتله شاب حلبى فدائى فيما يظهر ، وإنى أمقت الوسيلة وإن ارتحت إلى الغاية .

ــ حسناً يا محمود ، وإن كان بعض الناس يرى أن الغاية تبرئ الوسيلة .

فقال نيكلسون : هذا رأى قائل شديد الخطر ، لو أخذ به لهدمت الأخلاق جميعاً ، ولتحول الناس إلى ذئاب وثعالب . إن الغدر ليس من الشجاعة فى شىء ، وإن من الرجولة أن يجبه الرجل خصمه فى نزال شريف .

فقالت اورا : هذا صحيح يا أبى ، ولكنى ، أظن أن الأمر يختلف إذا اختلف الخصمان فى القوة .

ــ هونى عليك يا بنيتى ، ودعينا ــ كما يقول الإنجليز ــ نتفق على أن نختلف . اتظنين أن الفرنسيين سيصبون نقمتهم على البلد ؟

ــ ما أظن بعد أن قبض على القاتل وتبين أنه حلبى .

وقال محمود : أخشى أن يجرهم البحث إلى تتبع المتآمرين الذين كانوا يغشون بيت الشيخ السادات ، وحينئذ فعلىّ وعلى نيكلسون وعلى السيد عمر مكرم ، والسيد المحروق السلام . فقال نيكلسون : لا يا محمود إننا كنا نتآمر على

إخراجهم من البلد لا على قتلهم غيلة . الذى أظنه أن موجة العذاب سترحف على الأزهر ، لأن القاتل كان أحد طلابه.
ثم دلفوا إلى مضاجعهم ، والقاهرة ساهدة ناصبة . ومر يومان تم فيهما تحقيق الحادث الجلل ، وحكم على سليمان الحلبى بقطع يمينه التى صوبت الخنجر إلى صدر القائد العظيم ، وبصلبه فوق مخزق وترك جسمه لجوارح الطير تتخطفه ، وبقتل طلبة أربعة كان أفضى إليهم بسره . ثم احتفل الفرنسيون بجنازة المقتول احتفالا ضخماً.

وحينما قتل كليبر ، أطل الجنرال مينو برأسه من الغمرة التى كان فيها ، ووثب إلى قيادة الجيوش الفرنسية ، وأصبح حاكم مصر المطلق .

أما زبيدة : فحينما وصل إليها الخبر ، وعلمت أن زوجها أصبح حاكم البلاد ، وأنها أصبحت ملكة مصر كما زينت لها « رابحة » العرافة منذ سنتين ــ أخذتها نوبة مبهمة مختلطة ، يمتزج فيها السرور بالحزن ، والرضا بالسخط ، والتصديق بالسخرية والازدراء . وأخذت تناجى نفسها فى أسى ممض قاتل : أهذه غاية المطاف ؟ ! وتلك هى الأمنية الخدّاعة التى أطفأت بها سراج حياتى ؟! ولذلك الاسم الأجوف ضحيت بحب محمود الطاهر النقى ؟ ! ذلك الحب الملائكى الذى لو مس الهاجرة لعادت نسيما ، أو امتزج بالماء لكان

تسنيا ؟! أنا ملكة مصر ؟ ولن أستطيع أن أخرج من دارى، يالضحك القدر وياللسخرية وياللعار !

وتوالت الأيام ، وأظهر كل يوم منها تعثر « مينو » فى سياسته فقد عبث بقواد الجيش كما شاء حقده ، فعزل منهم من عزل لسخائم فى نفسه ، ورفع من رفع من غير حق . فذعر القواد لهذه الفوضى وسخط الجنود ، وتبددت وحدة الجيش ، وألف ديواناً جديداً للأحكام ، جعل بين أعضائه صهره العزيز السيد عليا الحمامى ، ثم اتجه إلى أهل مصر فأرهقهم بالضرائب الفادحة ، وأكثر من المصادرة وسجن الأبرياء وهدم الدور ، حتى محيت أحياء بأكملها ، وزاد فى سخط الجيش أن زبيدة وضعت له غلاماً فسماه: سليمان ، شماتة فى كليبر ، وتنويهاً باسم قاتله .

وفى مارس سنة ١٨٠١ ذاعت بين الناس ذائعة تلقفتها الأفواه وردّدتها المجامع ، وتنفس الناس لها الصعداء ، وكان نيكلسون ومحمود العسال يزوران السيد المحروقى فى داره، فوجدا عنده الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، فسأله نيكلسون : ما هذا الخبر الغريب يامولانا ؟

— لم يصبح الخبر غريباً يا سيدى السوسى، فقد وصلت عمارة إنجليزية إلى أبى قير ، فهزمت الفرنسيين ونزلت إلى البر ، ودارت معركة بالإسكندرية بالمكان الذى يدعونه

بقصر القياصرة ، كانت الغلبة فيها للإنجليز أيضاً ، وسافر « مينو » إلى الإسكندرية ، لتتم الهزيمة .

ـ أواثق أنت من هزيمة الفرنسيين .

ـ كما أثق بالعدل الإلهى . إن الفرنسيين ليسوا كما كانوا أيام بونابرت ، وقد قضى مينو على البقية الباقية من حماستهم واجتماع كلمتهم ، وراح يبدد جيشه فى كل أنحاء مصر . فكيف يستطيع بفئة قليلة أن يلاقى جيشاً عظيما ؟ !

ـ ما رأى سيدنا الشيخ فى الإنجليز ؟

ـ أخاف أن تكون لهم نية فى مصر ، وأنهم يركبون الترك مطية لأغراضهم .

ـ إن الإنجليز قوم شرفاء .

ـ وما شأن هذا بالشرف ؟ إن للكون نظاماً ، والفوز دائماً للقوى .

وانفض المجلس وتوالت الإشاعات فى كل يوم ، ورقص عوام القاهرة وطربوا لكل خبر جديد ، وأنشد الصبيان الأناشيد فى المكاتب والطرق ، وخرج شذاذ « الحسينية » و « العطوف » و « الرميلة » فى جموعهم يتحدون الفرنسيين ، ولم تمض أيام حتى وثب جيش الترك والإنجليز على أرباض القاهرة ، فذعر الجنرال « بليار » نائب « مينو » وعقد مع المغيرين معاهدة من شروطها : أن يغادر الجيش الفرنسى

بلاد مصر فى أقرب ما يكفى من الزمان لرحيله .

أما مينو فاضطرب أمره بالإسكندرية وركب رأسه ، وقذف بجنوده فى غير حزم إلى موت محتوم حتى إذا سقط فى يده ، ورأى أنه ضل الجادة وتقطعت به وسائل الدفاع ، سلم سيفه مهزوماً ، وعاهد الترك والإنجليز فى السادس والعشرين من أغسطس سنة ١٨٠١ على مغادرة مصر ، فأقيمت معالم الأفراح فى كل مكان . وأشرقت الشمس بنور ربها فبددت غياهب الأحزان ، ونظر الفرنسيون إلى الجنوب وهم مبحرون من الإسكندرية ، بعد أن تمزقت آمالهم ، فإذا أبو الهول لا يزال يبتسم ! !

١٦

كانت زبيدة ذات صباح فى غرفتها ، وهى فى هم ناصب وحيرة قاتلة : أتفرح بجلاء الغاصبين عن بلادها ، أم تحزن لجلائها عن بلادها ؟ ولماذا تفارق أهلها وديارها إلى قوم هم عنها غرباء ، وهى فيهم دخيلة ؟ ألهذا الزواج الذى عبث بنسبتها فأصبحت لا شرقية ولا غربية ، ونقلها من بيئتها التى فيها نشأت ، وفى جوها نمت ، وفى ظلال آمالها تفيأت — إلى بيئة أعجمية أصبحت فيها غريبة

الوجه واليد واللسان . لماذا تفارق أرضها وديارها ؟ إن زواجها كان خطرة من وسواس مينو ذى الخيال الخصيب والعقل العجيب ، ولبانة أراد قضاءها فى مصر .

وبينما هى تغوص وتطفو فى هذا الخضم المائج من الأخيلة والأفكار ، إذ صاح ابنها سليمان وكان نائماً ، فهرعت إليه حدبة مشفقة مدللة ، وأخذت تناغيه وتناجيه بألفاظ عذبة ، تعرف الأمومة العطوف كيف تصوغها ، ثم شرعت تحدثه كأنما تحدث فتى يافعاً وتقول : ستبقى معى هنا يافتاى العزيز إذا ذهب أبوك إلى فرنسا ، سنعيش هنا يا سليمان سعيدين ، وستنال من حبى أضعاف أضعاف ما كنت تناله من حب أبيك . إن فى قلبى حبًّا قديماً مكظوماً كتمته وأحكمت سده ، وقد كنت فى يوم من الأيام أريد أن أسعد به كما تسعد الفتيات ، فجاء أبوك فى طريقى فسددته عنه وعن الناس جميعاً ، فخذه كله يا سليمان ، فإنه حب نقى كماء الغمام ، طاهر كصحائف الأبرار ، عظيم كموج البحر . إنك إن تذوقته أغناك عن حب أبيك ، إنه حب فتاة والهة ضاع أملها ، وأم رءوم تحيا مرة أخرى فى وحيدها . وهنا ضحك الطفل — وكان فى شهره السابع — وحرك يديه ، فقبلته وقالت : أتضحك من أمك يا سليمان ؟ ! اضحك منها كما تشاء فقد ضحك منها أبوك ، وضحك منها الناس جميعاً ، ولكنك ستبقى لى

على كل حال ، ريحانة حياتى وقرة عينى . وإذا طلبك أبوك فقل له فى رجولة وشهامة : سأبقى مع أمى فاذهب أنت حيث شئت ، إن أبناء النيل لا يبغون بمائه الطاهر بديلا ! أنت مصرى يا سليمان . . أنت مصرى بلا شك لأنى مصرية ، وأنت فلذة منى ، فدع أباك الفرنسى يذهب إلى بلاده كما يريد ، وتعال نعد إلى دارنا فى رشيد ونجمع حطام تلك الذكريات الحلوة ، التى عبثت بها العواصف وبددتها الخطوب .

ثم طافت بوجهها جهومة قاتمة ، وقالت : وإذا حتم أبوك أن تذهب معه إلى فرنسا فماذا تفعل ؟ أتذهب معه ؟ إنك إن فعلت قتلت أمك يا سليمان . إنى أوثر أن تنزع روحى من جسمى على أن تنزع أنت من يدى . وهنا طرق الباب خادمها « سرور » وكان معه « روفائيل » المترجم جاء يحمل رسالة من مينو قدم بها جندى من الإسكندرية ، فأذنت لهما بالدخول . وأخذ روفائيل يترجم الرسالة وكانت موجزة جافة يأمر فيها زبيدة بالرحيل العاجل إلى رشيد ، لتدرك السفن التى ستقل جيش الجنرال « بليار » إلى فرنسا ، ويهددها فى آخر رسالته بأنها إن أبت الرحيل ، فعليها أن تسلم ولدها إلى مسيو « إستيف » مدير الشئون المالية ، ليحمله إلى أبيه بالإسكندرية . وما كادت زبيدة تسمع الرسالة ، حتى

جن جنونها ، وصاحت فى وجه روفائيل :

اذهب وقل لسيدك : إن مخلوقاً فى الأرض لن يستطيع أن يأخذ منى ولدى ، ثم قل لسيدك : إنه لم يعد حاكماً على مصر حتى يتبع معى أساليبه التى قضت عليه وعلى ملكه . ثم قل له مرة ثالثة : إن زبيدة مصرية ، وإن ابنها مصرى ، رغم أنف القوانين التى تأنقتم فى وضعها . .

وحينما سمعت أمها صياحها أقبلت مذعورة ، وكانت فى غرفة بعيدة مع ابنها الحمامى ، فلما علمت الخبر انفجرت بالبكاء ، ووقف إلى جانبها « سرور » وهو يدافع الدمع فلا يستطيع . . وكان المترجم « روفائيل » قد خرج بعد أداء رسالته مسرعاً ، فلحق بالمسيو « إستيف » فى دار ديوان الأحكام وأخبره الخبر، فأسرع إستيف إلى قصر مينو وطلب مقابلة زبيدة، وكان ينتفض من الغضب، فلما قابلها قال لها فى حزم وتصميم : إن زواجها بالجنرال لم يكن لعبة لاعب أو سخرية ساخر ، وإنما هو زواج شرعى له كل مطالب الزواج الشرعى ونتائجه . أما أن الجنرال لم يعد حاكماً لمصر ، فتلك مسألة ليس للنساء أن يخضن فيها ، ولكن الذى يعلمه ، والذى يجب على السيدة أن تعلمه ، أن من مطالب الجنرال مينو الأولى عند الاتفاق على نزوح الفرنسيين عن مصر — أن تتخذ الوسائل الأمينة

لسفر زوجه وابنه إلى فرنسا . فإذا كان مينو حاكم مصر أو لم يكن ، فإن الترك والإنجليز سينفذون هذا المطلب ، رضيت السيدة أم أبت . وإذا بلغت بالسيدة رقة العاطفة بحيث لا تستطيع أن تغادر وطنها ، فإننا لن نجرؤ على مس تلك العاطفة النبيلة ، ولكننا نكتفى بحمل ابن الجنرال إليه لأنه فرنسى السلالة ، بمقتضى المادة الحادية عشرة من عقد الاتفاق المسجل بمحكمة رشيد .

سمعت زبيدة هذا الحديث أو هذا التهديد فصعقت ، وتطلعت إلى مسيو إستيف فى استعطاف يفتت الصخر ، فلم تجد فى وجهه إلا عبوساً ويبساً ، ثم تنهدت وقالت : ألا ينتظر الجنرال سنة حتى ينمو الطفل قليلا ويتحمل مشاق السفر ؟ فقال إستيف فى إيجاز : السفر غداً .

وهنا هزت زبيدة رأسها وقالت فى شمم اليائس : سأسافر بالطفل غداً ، ويفعل الله ما يشاء . ثم كفكفت دموعها وقالت لسرور : أعد كل شىء يا سرور . وهمت أمها بالبكاء فصاحت بها : ليس هذا وقت البكاء يا أماه ، إنما هو وقت الصبر والتسليم لأحكام القدر .

فأعد سرور كل شىء للرحيل ، وحتمت والدة زبيدة عليه أن يسافر مع سيدته إلى فرنسا ، وذاع خبر سفر زبيدة بين أهلها بالقاهرة ، فاجتمع فى الصباح بالقصر :

السيد المحروق ، وزوجته أمينة ، وابنه وابنته ، ومحمود العسال ونيكلسون ، ولورا . وكانت قترة من الحزن تعلو وجوههم كأنهم جاءوا لتشييع جنازة ، ونزلت زبيدة من السلم وحولها أمها وأخوها وسرور ، وخادمة تحمل ابنها سليمان ، فسلمت على مودعيها واحداً واحداً فى صمت وتجلد . ولما جاءت للسلام على ابن خالتها محمود لم تملك إلا أن تعانقه ، وتطبع على جبينه قبلة صامتة . ولما همت لتركب المحفة إلى ســاحل بولاق ، اتجهت نفيسة إلى سرور وهى تحمل فى يدها كيساً ثقيلا وقالت : هذا الكيس يا سرور به ألف محبوب ، فاحفظه معك ولا تنفق منه شيئاً ، فإذا وقعت سيدتك زبيدة فى ضائقة فأنفق منه ما تشاء لتخليصها .

وركبت زبيدة المحفة بين بكاء الباكين وعويل المعولين ، واختفت عن الأنظار كما يختفى حجر صغير يقذف به فى بحر خضم .

وسار محمود ولورا مع خالته نفيسة حتى بلغا دارهما ، وحينئذ قالت لورا : لم يعد لنا بقاء بالقاهرة يا محمود .

— إن سرورنا بخروج الفرنسيين ضيع نشوته حزننا على زبيدة ، وقد أقمنا بالقاهرة لمناجزة الغاصبين ، لذلك أرى ما ترين .

فأسرع نيكلسون قائلا : لنسافر غداً إذاً مع السيدة نفيسة . ولما عقد الاتفاق على السفر ، خرج محمود إلى ابن

عمه حسين فأخبره بما عزم عليه ، ووجد عنده سعداً الشباسى المراكبى ، فعلم منه أنه سيسافر إلى رشيد بعد يومين . فتركهما محمود وأخذ فى الاستعداد للسفر ، حتى إذا جاء اليوم الموعود ركبوا فى السفينة إلى رشيد .

١٧

وصلت السفينة إلى رشيد بعد ستة أيام، والتقى محمود بأمه بعد طول الغيبة، فرآها لا تزال ملازمة فراشها ، ولكنها انتعشت لرؤيته ودب فيها دبيب الحياة . ثم قدم إليها اورا ، فقبلت يدها فى أدب جم ، وأخذت السيدة زينب تحدد النظر إليها وتصوبه ثم صاحت : هذه ابنتنا اورا ؟ أين كنت يا بنيتى كل هذه المدة ، أيجمل بك أن تتركى خالتك المريضة دون أن تروحى عنها بزيارة قصيرة .

فقال محمود : إنها كانت فى القاهرة يا أمى منذ دخول الفرنسيين مصر ، وقد كانت ترعى ابنك محموداً ، وتمرضه وهو جريح ، حتى عاد إليك رجلا قوياً يحملك هكذا ، ويقبلك هكذا . ثم حملها وأخذ يغمر وجهها ويديها بالقبل وهى جذلى فرحة . ثم قالت وقد التقطت أنفاسها : إنك لا تزال غلاماً شقياً كعهدى بك . وأين أبو لورا ؟

ـ ذهب إلى منزله الذى كان يسكنه « إلياس فخر » المترجم ، لأنه رحل مع الفرنسيين فاتجهت إلى لورا وقالت : لقد كان منزلك جميلا يالورا ، كنت كلما زرت مقام سيدى الإدفينى عرجت عليه لأجلس بجانب إحدى نوافذه الشمالية ، لأتمتع بشميم أزهار الحدائق حوله . فأسرع محمود وقال : إنه لم يعد منزل لورا يا أمى .

ـ ألم تقل : إن المترجم رحل عنه ، وإن الخواجة نيكلسون عاد إليه ! . .

ـ نعم . ولكن لورا يحول الآن بينها وبين سكناه حائل عظيم .

ـ حائل عظيم ! ! ما هو ؟ فابتسم نحو لورا وقال :

ـ الشرع الشريف والحب الشريف .

فقالت أمه : أنا لا أفهم هذه الألغاز !

ـ وهذا بعض ما تستحقين ، فطالما ربكت عقلى بالأحاجى « الفوازير » وأنا صغير لا قبل لعقلى بها .

ـ دع هذا يا محمود وخبرنى جلية الخبر .

ـ إن لورا تزوجت .

ـ ألف مبارك يا لورا . بمن ؟ فقال محمود :

ـ بمن لا يحب فى الدنيا إلا امرأتين : هى . . وامرأة أخرى تجلس الآن فى سريرها .

ـ رجعنا إلى الألغاز . بمن بحقك ؟ ؟

ــ بابنك محمود .

فاتجهت زينب إلى لورا ومدت إليها ذراعيها ، وأخذت تقبلها بين الضحك وانهمار الدموع ، ثم قالت وهى تداعبها: عرفت سر تكرار زياراتك لخالتك حينما كنت برشيد . ثم ضحكت وقالت : هؤلاء البنات لا يغلبهن غالب حينما يردن ، وقد خلفت لهن أمهن حواء تلك الشبكة المحكمة الأطراف التى تصيدت بها أباهن آدم . ألف مبارك يالورا . من مثلى الآن فى رشيد ؟ لى ولد وبنت صورهما الله من جمال وحسب وخلق كريم ! الآن لا أحب أن أموت !

ثم أمرت الخدم أن يعدوا لهما غرفاً خاصة بهما ، وبعد قليل هجس بنفسها هاجس أليم انقبض له وجهها فقالت: لقد علمت بخاتمة نكبة بنت خالتك يا محمود ، إنها لمصيبة، أخف منها الموت . وكيف حال أختى نفيسة ؟

ــ جاءت معنا من القاهرة وذهبت إلى دارها .

ــ مسكينة !! لن تجد بدارها أنيساً إلا إذا ائتنس البائس بما يؤلم من الذكريات ! ! مسكينة مات زوجها الشهم الذى لم تشرق شمس رشيد على مثله ، وضاعت بنتها غنيمة للفرنسيين ، حتى كأنهم لم ينزلوا مصر إلا لاختطافها ، وبقى لها . . ماذا بقى لها ؟ ! الثكل والجزع وابنها على الحمامى .

ــ آه يا أماه ! ! إن رزيئتنا فى زبيدة فوق الاحتمال .

فأرسلت أمه نظرة خاطفة إلى لورا وقالت : ذلك قضاء الله يا بنى . من كان يظن أن الشرقى يتزوج غربية ، والغربى يتزوج شرقية ! ! آمنت بالله ، آمنت بالقدر خيره وشره ! !

وفى هذا اليوم غير نيكلسون زيه فارتدى ملابسه الإفرنجية ، وطلق اسم الحاج محمد السوسى إلى غير عودة ، وقابل شريكه « أورلندو » فضبط معه حسابه مدة غيبته ، وعاد إلى متجره بشارع البحر كما كان ، مغتبطاً مسروراً برحيل الفرنسيين ، مزهوًّا فخوراً بأن قومه هم الذين أجلوهم عن البلاد .

ومرت سنوات ست على محمود حتى أظلته سنة ١٨٠٧ وهو هانئ سعيد بزوجته ، وقد زاد بها تعلقاً وزادت به حبًّا . وفى خلال هذه السنوات اضطربت الأحوال بمصر ، واشتد الصراع بين الترك والمماليك ، وشايع زعماء المصريين محمد على باشا ، واختاروه والياً على مصر ، وتجرد لمحاربة المماليك واستئصال شأفتهم .

وفى ذات ليلة بينما كان محمود ولورا يزوران نيكلسون ، دخل حسين العسال ابن عم محمود ، وقال وهو يلهث من التعب : لقد بحثت عنك يا محمود فى كل مكان . جئت اليوم من الإسكندرية وهى فى أشد أحوال الكرب والاضطراب ، فقد نزل بها بالأمس جيش إنجليزى واحتل المدينة ، والناس فى حال يرثى لها ، لأنهم لم يكادوا يفيقون

من صدمات الفرنسيين ، حتى سقطوا فى أيدى الإنجليز .
وقد علمت من الشيخ المسيرى أن قائد هذه الحملة يدعى فريزر . فبهت محمود وقال فى ذهول : جيش إنجليزى ؟
– نعم فإنى أعرف الراية الإنجليزية ، وأميز ملامح الإنجليز من أى جنس آخر . فقال محمود : ولماذا قدموا يا ترى ؟ فأجاب نيكلسون وقد أدرك حرج موقفه : إنهم لم يجيئوا لامتلاك البلاد ، والذى أعلمه أن الدولة العثمانية حالفت نابليون ، وقطعت صلاتها بإنجلترا ، فخاف الإنجليز أن يستغل الفرنسيون صداقتهم الجديدة للترك فيعودوا إلى احتلال مصر ، فجاءوا لدرء الخطر الفرنسى عن مصر . وربما كان مجيئهم استجابة لدعوة من المماليك .
فقال محمود ساهماً : هذا كلام حسن يا صاحبى ، وأرجو أن يكون الأمر كما تقول .
وبعد أيام كانت رشيد فى قلق واضطراب ، فقد شهد الناس من مئذنة مسجد زغلول جيشاً مقبلا على المدينة . ولم يكن برشيد من العدة وآلات القتال ما تستطيع أن تدرأ به جيشاً غازياً ، ولم يكن لها من الأسوار إلا أطلال عصفت بها الرياح والأنواء . وما كانت إلا ساعة من نهار ، حتى دخل الإنجليز المدينة بغير قتال ، فثار السكان وغضبوا . وكان محمود العسال فى حيرة بين واجبه وحبه ، فما كان يصح فى عقله

أن يقتحم المغيرون مدينته وهو واقف مكتوف اليدين . ولكن لورا ؟ أيحارب قومها ؟ لقد كاد قلبه لشدة شغفه بها يتسع لحب الإنجليز جميعهم .

جلس حزيناً مفكراً ، وأصوات الناس وعجيجهم تملأ أذنيه ، وهم مسرعون للقتال . فدخلت عليه لورا وقالت :

ــ فى أى شىء تفكر يا محمود ؟

ــ أنا فى حيرة بينك وبين وطنى يا حبيبتى .

ــ بينى وبين وطنك ؟ إن قومى بخير يا محمود ، وإن قومى يمجدون الشهامة كيفما كانت ، حتى إنهم ليمجدونها فى أعدائهم . وإننى لم أحبك إلا لبطولتك وإقدامك ، وغيرتك على بلادك ، فإذا تخليت عن هذه الصفات لأجلى فقد تخليت عن حبى .

لا يا حبيبى سر على بركة الله مجمع القلب باسم الوجه ، وعد إلى زوجتك الوالهة مظفراً منصوراً .

فوثب إليها يقبلها وتقبله فى شغف وحنان ، ثم اختطف بندقيته وقفز إلى باب الدار ليلحق بالجموع الزاخرة التى شمرت للدفاع عن المدينة ..

وكان الحشد عجيباً حقاً ، اجتمع فيه الرجال والنساء والشيوخ والأطفال ، وكانت العصى والحجارة أكثر ما يزهى به هذا الجيش من عدد القتال ، فتقدم محمود الجمع ، ودعا

إلى الهجوم بين تهليل المهللين وتكبير المكبرين ، ولما احتدم القتال ولاح النصر فى جانب أهل المدينة ، رأى محمود رابية لا تزال تتحصن بها ثلة من الجنود ، فدعا إلى محاصرتهم ، ولكنه لم يكد يتقدم منهم قليلا حتى رماه أحدهم برصاصة اخترقت صدره فسقط على الأرض صريعاً .

وهنا ثار السكان ووثبوا وثبة رجل واحد ، فتراجع الغزاة وغادروا المدينة ، وعاد الجموع يحملون جثة محمود بين البكاء والعويل ، حتى وصلوا إلى بيته ، فهرعت لورا المسكينة إلى زوجها المقتول نادبة باكية ، ورمت بنفسها عليه تعانقه وتقبله ، وتخاطبه كأنما هو حى مدرك ، بألفاظ تقطع نياط القلوب ، وعبارات تستنزف ماء العيون .

وفى الصباح هرع الناس للاحتفال للجنازة ، وأخذ المؤذنون فوق المآذن يشيدون ببطولة الراحل ويمجدونه ، ويستمطرون عليه الرحمات

ثم حمل أعيان المدينة النعش على أعناقهم إلى مدفن شهاب ، وعاد المشيعون يرددون الدعوات ويرسلون الزفرات .

أما لورا فقد أصابها طائف من الذهول ، فكانت تخرج فى كل صباح مع خادمتها ذاهلة مأخوذة ، فتذهب إلى الحدائق لتجمع أنضر أزهارها ، .. ثم تتجه إلى قبر زوجها فتنثرها فوقه ، وتجلس صامتة مطرقة حتى يظلها

الليل ، فتعود مع الخادمة .

وفى إحدى الليالى الممطرة المظلمة ، سمعت السيدة نفيسة طرقاً على باب دارها ، فأيقظت خادمتها لتفتح الباب . وما هى إلا لحظة حتى صعد سرور ومعه سيدته زبيدة ، فلما رأت زبيدة أمها سقطت بين ذراعيها باكية ، وطفقت تقبلها وتهتف بكلمات متقطعة . أما أمهـــا فقد أدهشتها المفاجأة ، فأخذت تهذى وتبكى ، ثم تفتح عينيها واسعتين لترى أفى يقظة هى أم فى منام . فلما سرى عنها قليلا تأملت فتاتها المحبوبة ، فرأت هزالا وسقماً ، ووجهاً شاحباً شاعت فيه الغضون ، فهزت رأسها فى شجن وأسى واتجهت إلى سرور فقالت : قل لى كل شىء يا سرور . فزفر سرور زفرة طويلة ثم قال : سافرنا من رشيد إلى فرنسا ، ثم لحق بنا الجنرال مينو بعد شهر ، وأقمنا بباريس ، وفى هذه المدينة تبدلت أخلاق الجنرال ، وكنت دائماً أوصى سيدتى بالصبر ، ثم رحلنا إلى إيطاليا فى مدينة يسمونها «تورينو» فزادت حدته ، وتضاعف احتقاره لسيدتى بما لا يحتمل . ثم هجر المنزل ، وترك سيدتى تقاسى غصة الفقر وألم المهانة . ولم نصبر هذه المدة الطويلة على هذا الأذى ، إلا من أجل ابن سيدتى سليمان ، ولكن الجنرال شمر أخيراً عن ساعديه ، وضرب القاصمة . فأرسل ابنه إلى فرنسا ليضعه فى إحدى الأسر الشريفة لتثقيفه

وتعليمه . وعندئذ لم يبق فى قوس الصبر منزع ، ولم تجد سيدتى فى البقاء بإيطاليا — بعد أن انتزع ابنها منها — إلا موتاً بطيئاً تحيط به الهموم والأحزان ، فعزمنا على الفرار ، وأخرجت كيس المال الذى أودعته عندى يوم رحيلنا ، فسافرنا خفية فى ظلام الليل إلى مدينة تسمى « نابلى » ومنها ركبنا سفينة إلى الإسكندرية ، فوصلنا إليها أمس ، ثم اكترينا بغلين إلى رشيد . فتنهدت نفيسة وقالت : نعم ما صنعت يا زبيدة !! ستعيشين بجانب أمك هانئة سعيدة ، وستمحو الأيام تلك الذكريات القاسية ، فإن كل شىء ينسى يا بنيتى فى هذه الحياة .

— كما تشائين يا أمى . كيف حال ابن خالتى محمود ؟

فوجمت نفيسة وسقط فى يدها ، لأنها ما كادت تظفر بتهدئة بنتها حتى اصطدمت بسؤال يثير الآلام . ولكنها جمعت شجاعتها وقالت : إن هذه الدنيا لا يركن إليها يا زبيدة .

— ما معنى هذا ؟

— لقد قامت حرب بالمدينة منذ شهر ، كان محمود بطلها المغوار .

— أجرح ؟

— نعم جرح جرحاً بالغاً .

— وكيف حاله الآن ؟

ـ إنه الآن لا يتألم يا زبيدة . إنه فى جنات النعيم ! !

فشهقت زبيدة شهقة كادت تودى بها ، فعادت أمها إلى تهدئتها وتسكين ثورتها ، وانقضى الليل كله فى بث وبكاء ، ومحاولة للتصبر والعزاء .

وعند ما بزغت الشمس سألت زبيدة أمها عن مكان قبر محمود ، وأخذت معها سروراً ، فانطلقت إلى القبر هالعة جازعة ، حتى إذا بلغته رأت امرأة جاثية عنده ، مطرقة ذاهلة ، فلم تتبين وجهها . فجثت قبالتها فى صمت وخشوع ، ثم غلبتها الزفرات فتنبهت المرأة ورفعت رأسها ؛ وحين نظرت زبيدة إليها من خلال الدموع صاحت :

ـ لورا ؟ أنت لورا ؟ ونظرت إليها لورا نظرة المذهول وقالت :

ـ زبيدة ؟ أحقًّا أنت زبيدة ؟ ثم غلبهما البكاء فأطرقتا ، وطال هذا الإطراق ، حتى إذا قلق سرور لطول صمتهما قام فرأى لهوله أنهما فارقتا الحياة ، فأسرع إلى سيدته فأخبرها الخبر الأليم .

وشاع الأمر فى المدينة ، فجاء السيد على الحمامى وجاء نيكلسون ، وتزاحم الناس فحملوا الجثتين . وبعد صلاة الظهر احتفل أهل رشيد بجنازتهما ، ووضعوهما فى نعش واحد ، ودفنوهما فى قبر واحد .

وإذا ذهبت إلى رشيد اليوم وقصدت إلى مدفن شهاب

رأيت قاعة طال القدم على جدرانها ، بها قبر نثرت عليه الأزهار ، ورأيت رخامة كتب عليها بخط الثلث الجميل :

« هذا قبر الشهيدتين »

عصفت بلك الأطماعُ والأيامُ
وتبدّدت عن جفنك الأحلامُ
وتركت محمـــوداً يصــارع قلبه
حتى ترفرفَ فوقَكِ الأعـــلام
وصببت فوق ضريحه دمعَ الهوى
والحب والأمل البعيـــد حطام
وبعثت روحك فى ثنايا روحه
فعلى شبـــابكما الرطيب ســـلام

بدر الدين على الجارم

رقم الإيداع	١٩٩١ / ٥٦٩٠
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-3376-5

١ / ٨٦ / ٥١

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



غادة رشيد

القصة التى هزت وجدان الشباب.. كيف تزوجت زبيدة الفاتنة من الجنرال مينو.. بينما كانت تحب ابن خالتها محمود العسال.

وهل دفع هذا محمودًا للانتقام من الفرنسيين! وما علاقة هذا باغتيال سليمان الحلبى.. للجنرال كليبر!

وكيف تحررت زبيدة من مينو؟ وهل تزوجت المناضل محمود العسال ؟!

قصة تموج بالحب والوطنية.

٤٠٠٩٧٢/٢

